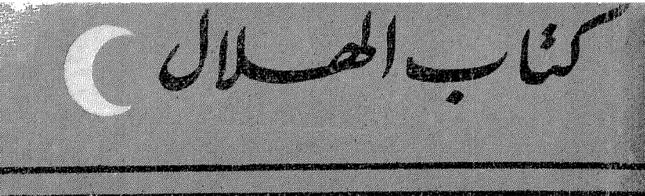
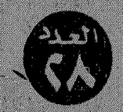


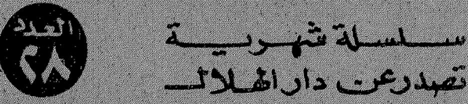
عصا الحكيم

فى الدنيا.. والآخرة

بقلم

توفيق الحكيم







كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٨ ـ شوال ١٣٧٢ ـ يوليه ١٩٥٣

No. 28 — July 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشاصاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

عصا الحكيم

فى الدنيا والآخرة

بقلم

توفيق الحكيم

تمهيد

ابنة من الخشب

تلك هي عصاى ... عرفتها أو قل حملتها منذ نحو ربع قرن ... منذ أن كنت وكيلا للنيابة فى مدينة طنطا ... منذ ذلك التاريخ وهى تلازمنى كأنها جزء من ذراعى .. تنتقل معى وتسير .. من مصير الى مصير .. لا تضجر منى ولا تزهد فى صحبتى .. لو أنها كانت ابنة من لحم ودم ، لقالت لى اليوم : دعنى .. انى لست من جيلك !.. والتفتت الى زوجها وبيتها !.. ولكن عصاى لم تعصنى بل تبعتنى وأطاعتنى وقاسمتنى الأيام البيض والأيام السود .. انها ليست مثل « حمارى » الذى تركنى وجرى الى ميدان السياسة وانغمر فيها .. فلم يعد فى مقدورى العثور عليه أو تمييزه من بين السياسيين !. لا .. ان عصاى معى دائما .. قانعة بحياتها الهادئة المتواضعة بجوارى .. تسمع كل ما يدور

حولى •• وتهز رأسها فى يدى عجبا أو سخرا أو صبرا
.. وتكتم كثيرا .. وتهمس قليلا .. ما من شك عندى
فى أنها تريد أحيانا أن تتكلم •• ولكنها تصمت أدبا••
لأنى لم أدعها الى الكلام ••لقد لحظها الكثيرون منقديم
•• وأشار اليها أحيانا بعض الكاتبين والراسمين ••
وحياها بعض الأصدقاء بقولهم لى : « أهى دائما معك
لا تفارقك ؟ ! » . نعم هى بعينها .. لا أبتغى بها
بديلا .. ولو كان من الذهب الابريز .. هذه العصا
البسيطة من الخشب الأبيض الزهيد •• لقد هرمت
واعتلت •• ونخر فيها الداء •• ولكنى أتناولها بالعلاج
.. والخوف على حياتها يخلع قلبى .. حتى كثرت فى
جسدها المسامير .. انها يجب أن تعيش .. لأنى
لا أستطيع أن أتصور يدى بدون يدها .. تلك التى
عاشت معى خير سنوات العمر ••!

أظن من حق هذه العصا ومن العرفان لها ببعض
الجميل ، وقد نزلت منى هذه المنزلة ، وبلغت من الدهر
هذه السن ، أن أصمت أنا •• وأقدمها هى •• وأدعوها
الى الكلام هنا •• تقول لنا كل ما يجيش بصدرها ، من
شئون الناس والفكر والمجتمع •••

الجزء الأول

فى الدنيا

الخوف من الجوع

قالت العصا :

ـ يحدث أن ينطلق خيالى أحيانا متسائلا : « كيف يقضى الناس يومهم الأول فى جنة الخلد ؟.. » ..أغلب ظنى أن فقراء الدنيا سيرتمون على المائدة الشهية والفاكهة الجنية ، يأكلون منها أكلا يزعج الحراس من الملائكة ، فيبادرون اليهم منبهين مذكرين : مهلا .. مهلا .. مخلدون فيها .. أنتم مخلدون !.. ولكن فقراء الدنيا لا يسمعون .. أو لا يريدون أن يصدقوا ما يقال .. فهم يملأون البطون مما لذ وطاب ، كأنما الموائد سترفع عنهم بعد حين .. والفاكهة ستزول بعد قليل.. مثلما كان يقع لهم فى دار الفناء فيما يسمى « مطاعم الشعب » ! . وكأنى بحراس الجنة من الملائكة وقد أخذتهم الشفقة بهؤلاء الناس ، أقبلوا عليهم يقصونهم بلطف عن الموائد ، ناصحين :

ـ رفقا ببطونكم .. انكم واجدون ها هنا دائما كل هذا الطعام !..

فترفع الأصوات :

ـ دائما .. واذا جعنا يوما ؟..

ـ أنتم هنا لن تجوعوا أبدا .. أبدا ..

ـ ومن يضمن لنا ذلك ؟.. وكانوا كذلك يقولون لنا في الدنيا .. كان هنالك رجال يقـــولون لنا : « لن تجوعوا في ظل مبادئنا ! » .. فتبعنـــاهم فى شطر من الدنيا فوجدنا الدولة تجوع من أجل الفرد ..وتبعناهم فى الشطر الآخر فوجدنا الفرد يجوع من أجل الدولة!

ـ جنة الخلد هى المكان الذى لا يدخله الجوع ..

ـ سنرى ..

قالها القوم وكل منهم يلتهم تفاحته الرابعة .. وكأنه يسر لصاحبه : « تفاحة في اليد ولا عشر فى الغد ! »

فهمس أحد الحراس من الملائكة لزميله :

ـ ان الخوف من الجوع لم يمت فيهم بعد ، لعل الجوع هو أول ما يولد على الارض وآخر ما يموت !..

الكرات الثلاث

قالت العصا :

ـ أتتخيل القدر أحيانا فى صورة رجل بارع ، وقف فى ميدان عام يحرك كفه فى الهواء ويلعب بكرات ثلاث ، كما يفعل الحواة . . . وقد اجتمع حوله الناس من مختلف الأعمار والأجناس . . كل قد اشرأب بعنقه . . يشاهد ـ فاغر الفاه ـ تلك الكرات تتراقص فى يد الحاوى . . وقد كتب على الأولى : « المـــال » . . وعلى الثانية : « الصحة » . . وعلى الثالثة : « راحة البال » . .

صاح القدر مزهوا فى الناس :

ـ أما من واحد منكم أيها البشر يستطيع أن يفعل مثل ما أفعل ؟ . .

فتقدم رجل ومد اليه يده قائلا :

ـ أعطنى الكرات وأنا أفعل مثلما تفعل . . .

فأعطاه القدر ما طلب .. فما كاد الرجل يلعب بها.. وتستقر فى يده كرة « المـــال » وكرة « الصحة » .. حتى تسقط من يده كرة « راحة البال » ...

فضحك القدر ..وضحك الحاضرون .. فتقدم آخر يتحدى .. فأعطاه القدر الكرات .. فلعب بها .. فاذا كرة « المال » تسقط من يده وتبقى معه كرة « الصحة » وكرة « راحة البال » ..

فتقدم ثالث ورابع وخامس ... وهكذا دواليك .. ما من واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعـا فى عين الوقت ...

فصاح القدر فى الناس :

ـ كفى .. كفى .. لا تحـــاولوا بعد الآن .. انه ليخيل اليكم أن هذا فى الامكان .. ولكنه المستحيل.. ان طمعكم وغروركم يعميـــانكم عن الحقيقة : لا يمكن ليد انسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه الكرات الثلاث !..

مخلوق محير

قالت لى العصا :

ـ لو سألت الفنان : لماذا ينتج ؟.. لما أجاب بجواب واحد فى كل الأحوال .. فهو فى شبابه عندما تسيطر عليه الأحلام وتغذى وجوده الأوهام ، ولا يعرف بعد من الحياة الا جانبها البراق الخداع ، ولا يحمل من تكاليفها ما يبهظ أو يثقل، ولا يؤمن من حقائق الدنيا بغير الكلمات الكبيرة ، ولا يرى من القيم غير المعانى العظيمة .. فانه يقول : أنتج من أجل المجد !

فاذا سألته فى كهولته.. وقد تبددت الأحلام، وانقشعت الأوهام وظهر من الحياة وجهها الحقيقى فاترا ساخرا ، وأقبلت الدنيا تلقى على منكبيه الأثقال والتبعات ، وخلعت الكلمات الكبيرة سحرها ، وزال عن المعانى العظيمة رنينها .. وخيل اليه أن جهده باطل .. وأن الناس من حوله

يجدون وهو الهازل .. فانه يقول : أنتج من أجل المال!

فاذا أعطيته المجد والمال .. ذلك المجد الذى لامطمح بعده لطامح .. والمال الذى لا مطمع بعده لطامع .. وألفى نفسه مسموع الكلمة مرهوب الجانب ، باشارة من يده يستطيع أن يقيم الناس ويقعدهم ، ويغير ما بهم ويصلحهم .. ووجد نفسه فى قصور مرفوعة القباب.. عامرة بالجوارى والجنات ، تحت امرته أكثر من يخت ، يجوب به البحار والأنهار ، وأكثر من هوية تشغله ولعبة تلهيه .. فانك ترى منه بعد ذلك العجب الأكبر انه ينتج أيضا !..

فاذا سألته لماذا ولمن ينتج هذا الفن ؟.. فانه يقول : لا بد من أن أخلق .. ولا تسألنى لماذا ولا لمن ؟..

لا توجد اذن غير حقيقة واحدة فى كل ذلك : هى أن الفنان قد خلق ليخلق .. ومهما تكن الأسباب التى ينتحلها أو تنتحل له تبريرا لعمله ..فان السبب الأكبر هو أن قبسا حل فيه من صفة الخالق الأعظم ...

سر الاعجاز !

قلت للعصا :

ـ عندما زرت متحف اللوفر فى الصيف ، شاهدت فيه ما كنت أشاهد من ربع قرن : مصورين من مختلف الأسنان والأجناس ، وقفوا بأدوات رسمهم وألوانهم يحاكون آثار الأعلام المعلقة على الجدران ... وكان الكثير من الزوار يمرون بهؤلاء المقلدين ، ويطيلون التأمل فيما يصنعون ، ولا يستطيعون كتمان اعجابهم بدقة التقليد ، وبراعة المحاكاة . فهذه لوحة « الجيوكندا » المشهورة لدافنشى ، قد نقلها ناقل بابتسامتها الغامضة وألوانها القاتمة .. وتلك صورة « رافاييل » بريشته ، وقد قلدها مقلد بكل ما فيها من حذق فى الرسم ونضارة فى اللون .. لقد كان الزوار المشاهدون يذهلون لتفوق التقليد على الأصل فى بعض الأحيان .. أو هكذا خيل اليهم ، وكنت أنا من بين أولئك الذين كادوا

يخدعون بامتياز المحاكاة .. ولكننى جعلت همى بعدئذ تقصى الأمر وتحرى السر ..

ما من شـــك فى أن المهـــارة الفنية ليست وقفـــا على العبـــاقرة الغـــابرين .. وما من شك أيضـــا فى أن مفاتيح الصناعة قد اكتسبها الخلف بما انتفع من دروس السلف ، وبمااختزن من تقدم العصـــور .. فلا عجب فى أن يطاول النقل الأصل فى الصنعة الفنية .. لكن هنالك شيئا فى الأثر الخالد لا يمكن أن يطاوله أو يبلغ اليه ... هو الروح الداخلى .. هو ذلك المعنى الذى يشع من نظرات « الجيوكندا » وعينى « رافاييل »

نعم تلك كانت ملاحظتى الكبرى : ما من مقلد واحد استطاع أن ينقل نظرة العين على حقيقتها الأصلية ... ولقد قمت بنفسى بهذه التجربة مرات عديدة ... كان اتقان المحاكاة معجـــزا فى كل شىء .. الا فى نظرات العيون ... عندئذ أدركت أن سر الأثر الخالد ليس فى الصنعة الفنية الخارجية ..ولكنه فيما استقر خلف ذلك من روح لا تنقل ولا تنال ..

الهبوط الى الشارع

قالت لى العصا :

ـ لست أدرى هل تلاحظ هذه الظاهرة العجيبة فى مصر اليوم ؟

ـ أى ظاهرة ؟..

ـ كل شخص فى مصر يريد أن يهبط الى الشارع .. ويتملق رجل الشارع .. الساسة والعلماء والقضاة والأدباء والفنانون والمفكرون ..ما من واحد من هؤلاء استطاع ـ الا فى النادر ـ أن يفكر بعقله لا بعقل الجماهير .. وان فى ذلك لخطرا كل الخطر على أمة لم يتم لها النضج والرقى .. لأن انقراض طائفة الخاصة التى تفكر بعقلها الممتاز وتقود الشعب وتبصره وتنهضه وتهديه .. معناه زوال الرأس من جسم الأمة .. هل رأيت جسما يسير بغير رأس ؟ !

فقلت لعصاى :

ـ أهذه الظاهرة خاصة بمصر وحدها ؟ انها ظاهرة عامة فى كل بلاد العالم .. انها سمة العصر الذى نعيش فيه .. ان رجل الشارع فى كل أمة هو الذى يقـــرر اليوم مصيرها ..

فقالت :

ـ ربما كان رجل الشارع فى كل أمة متحضرة هو الذى يريد .. ولكنـــــه ليس هو الذى يفكر ، وانى أتحداك أن تدلنى على أمة راقية ترك فيها العلمـــــاء والمفكرون والســـاسة ، معاملهم وبحوثهم ومذكراتهم ودراساتهم ، وشغلوا بالتوافه التى تشغل العامة، واهتموا بالحصول على رضى الناس الرخيص ...

فقلت لها :

ـ حقا .. ليس لدينا بعد هذا الطراز من العلمـــاء والساسة والمفكرين الذين يعيشون حياتهم فى معمـــل أو مبدأ أو فكرة ..ولكن رضى رجل الشارع هو دائما المطلب الذى يسعى اليوم اليه قادة الأمم الكبرى

فقالت العصا :

ـ فكر قليلا تر أن رجل الشارع فى الأمم الراقية هو الذى ارتفع ، ولكن القـــادة فى بلادنا هم الذين انخفضوا ...

أعداؤنا الثلاثة

قالت العصا :

ـ ان لمصر ثلاثة أعداء . . .

قلت :

ـ أعرف . . . الجهل والفقر والمرض

قالت :

ـ لا . . بل الدجل والتهريج والنفـــاق . . . واذا كانت مصر اليوم فى هذا المستوى المنخفض من الحضارة ـ ويجب أن تعترف بهذه الحقيقة المرة مرغما ـ فذلك لا يرجع فقط الى فعل الجهل والمرض والفقر فيها . . وطالع التاريخ ينبئك بأن حضارات قد قامت وفى جوفها جهل وفقر ومرض . . وأن امبراطوريات قد أنشئت وسواد أهلها يعانون من المرض والفقر والجهـــل . . ولكنها جميعا أقيمت وأنشئت لأن أعمدتهـا ورؤساءها سلمت من جرائيم الأعداء الثـــلاثة الفتاكة : الدجل

والنفاق والتهريج ... ولكى أبرز لك خطر هذه العلل الثلاث أقول : يكفى أن يظهر رجل واحد خلا من هذه العلل حتى يحدث فيها حدثا يغير مصيرها .. واليك النبى العربى .. ظهر وحده فى أمة بدائية ، تسير فى أمور دينها ودنياها على نهج معوج .. فلم يساير ولم ينافق .. بل نهض يرفع الصوت ويجاهر .. وبالحق الذى شعر به يبلغ وينادى .. هو وحده أمام أمة راسخة فى تقاليدها كالطود .. والناس من حوله يعجبون له ، ولا يفهمون مراده ، ويظنون به الظنون التى تساور كل مجتمع ، فحسبوا دافعه حب المال والملك ، فقالوا له : « ان كنت انما جئت بهذا الحدث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ... » . ولكنه قال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .. »

.. بهذا برز من الصحراء دين حق ودولة كبرى وصلت المشرق بالمغرب !.

قلت للعصا :

ـ حقا .. حقا .. الدجل والنفاق والتهريج .. تلك هى الأعداء الثلاثة التى يجب أن نحاربها أولا قبل أن نرى لمصر مستقبلا !..

لماذا فقدنا روح البناء ؟

قالت العصا :

ـ انى أتأمل الأهرام وما شيدته مصر الفرعونية ، وأتأمل المساجد الأثرية وما شيدته مصر العربية .. وأعجب لهذا البناء الذى يهزم الزمن ... وأريد أن أسألك : ترى ماذا يمكن أن نبقى للغد مما تشيده اليوم مصر الحديثة ؟ !

فقلت : لا شىء .. لأننا لا نبنى شيئا للبقاء .. لأن فكرة البقاء لا محل لها فى نفوسنا .. والتفكير فى الغد لا يحتل مكانا من رؤوسنا ... لأننا اليوم قوم نعيش لليوم والساعة، عيش الكسالى والخاملين ..أو المتواكلين والعابثين .. ما من شىء ثابت فى حياتنا .. كل بناء لنا يصنع واهيا .. ليستهلك فى حينه .. وكل فكرة متغيرة .. وكل رأى متقلب .. وكل برنامج منهار .. وكل تحمس لا يعيش غير نهار ..

قالت العصا :

ـ وما العلة فى ذلك ؟ وكيف فقدت مصر الحديثة روح الاستقرار ؟ .. أهو نظامها السياسى ؟ !

قلت :

ـ لا أظن النظام السياسى وحده هو المسئول ... اليك انجلترا ، تتوالى فيها الأحزاب الحاكمة فى أوقات متقاربة .. واليك فرنسا تتغير فيها الوزارات بسرعة فائقة .. ولكن فكرة البقاء .. فكرة الغد ، فكرة الخلود .. كل ذلك باق راسخ فى ضمير الشعب .. اذا قام هناك بناء عام ، فان العين تلمح فيه من روعة الفن ومتانة الصناعة ما ينطق بأن البانى انما يبنى للدوام .. واذا قام مبدأ عمل أصحابه على تحقيقه ودأبوا فى ذلك حتى يصبح حقيقة نابضة ، واذا وضع برنامج صالح تعاون الجميع على تنفيذه ، فلا تهدم حكومة ما أقامته حكومة .. ولا يحطم فرد ما عمله فرد آخر .. ان الشعوب كالأشخاص .. فى طور الطفولة تميل الى التحطيم .. وفى طور الرجولة تنصرف الى الانشاء ...

قالت العصا :

ـ ان الطفولة تحتاج فى تكوينها ونموها الى نموذج من الرجولة ... ربما كانت علة مصر اليوم هى انعدام هذا النموذج !

جهاز السرعة

قالت العصا :

ـ العام يمضى وكأنه شهر .. أترى الشمس هى التى تسرع اليوم فى مجراها .. أو أن الأرض هى التى تسرع فى مدارها ؟ ..

قلت : ما أظن الشمس أو أظن الأرض هى التى تسرع .. ولكن الذى يسرع هو تفكيرنا ورغباتنا .. ان الزمن يبطىء بنا ويسرع على قدر وسائلنا وغاياتنا .. بالأمس يوم كنا ننتقل من مدينة الى مدينة على ظهور الدواب ، ونقطع المسافة القصيرة فى الأيام والشهور ، وننتظر الرسائل ترد بعد أسابيع من المكان القريب .. كان كل شىء كذلك يبطىء من حولنا مع بطء الزمن : التفكير والرغبة والغاية ... اليوم وقد نفخ عفريت العلم فى وسائلنا ، فجعلنا نقطع بالطائرات فى ساعات ما كنا نقطع فى أسابيع .. تحرك كل شىء تبعا لذلك . حتى غدت

الأيام والأعوام وكأن لها أجنحة هى الأخرى تخطفها
من الوجود .. وحتى غدا « الوقت » هو العـدو الذى
يطارده البشر لاهثين ... وحتى غدت كلمة «السرعة»
هى دستور اليوم وقانونه ودينه ... دينه الذى له رسله
وأنبياؤه من المخترعين الذين يعكفون على تجـويد كل
آلة وتحسين كل جهاز ليصـلوا به الى أقصى مدى من
السرعة .. فما نكاد نطالع خبر ظهور طائرة صاروخية
تقطع ألفى ميل فى الساعة ، حتى نطالع بعدئذ بقليـل
خبر طائرة أخرى أسرع من الأولى فى التهام «الوقت»
.. هى السرعة فى الوسيلة ولدت السرعة فى الرغبة
والسرعة فى الوصول الى الغاية .. فما من واحد اليوم
من سكان الأرض المتحضرين يسـتطيع أن يعيش بلا
أحداث تمر به فى كل يوم .. لا بد من انقلابات فى
الفكر وفى المجتمع وفى الاقتصـاد وفى الحكم .. ان
الجهاز العصبى للانسان الحديث قد أصبح هو الآخـر
مثل الجهاز الكهربائى للطائرة الحديثة .. مكيفا للسرعة
لا للبطء .. وما من شيء يثقل عليه ويخنقه ويشله مثل
الهدوء والوتيرة الواحدة ..فهو يشترى الحركة الدائمة
ولو بالحروب والدماء .. لذلك سوف تقوم الحروب فى
أوقات متقاربة ... لن يكون سلام ما دام جهاز السرعة
قد ركب فى روح الانسان !..

الشباب والحياة

قلت للعصا :

ـ ما أعجب الشباب !.. كلما تذكرت أيام التحاقنا بمدرسة الحقوق ضحكت !.. كانت مدرسة الحقوق فى ذلك الوقت تابعة لوزارة « الحقانية » .. وكان يقال لنا انه بالتحاقنا بها قد أصبح لنا الحق رسميا فى لقب « أفندى » !.. ولكن مطامعنا لم تكن لتقف عند هذا الحد .. كان كل واحد منا يعتقد أنه قد أصبح فى البلد شخصية مهمة .. وما كان أحدنا يقبل وهو فى السنة الأولى ، منصبا يوم تخرجه أقل من منصب الوزير .. فلما انتقلنا الى السنة الثانية قلنا : لا بأس بمنصب النائب العام ... وعندما صرنا فى السنة الثالثة قلنا : نقبل منصب المستشار ... وفى السنة الرابعة تواضعنا وقلنا: اذا عرض علينا منصب القاضى رضينا !.. فلما اجتزنا الامتحان الأخير وحصلنا على ليسانس الحقوق، وخرجنا

الى الحياة حفيت أقدامنا سعيا وراء وظيفة معاون نيـــابة تحت التمرين !..

قالت العصا :

ـ ماذا تسمى هذا ؟.. أهو الغرور أم الجهـــــــل بالحياة ؟..

قلت :

ـ ما الغرور الا وجه من وجوه الجهل ... وما أرى الحياة قاسية مفظعة فىقسوتها الا على الشباب .. لا لشىء الا لأنه يجهلها .. وهو فى جهـــــله لها يثق بها .. ويعتقد أنه يعرفها وأنها فى متناول يده ..

قالت العصا :

ـ حقا .. قلما تجد شابا لا يردد فى كل مناسبة كلمة « الحياة » !..

قلت :

ـ ان الانسان لا يكثر من الكلام دائما الا عما ليس فى يديه ويتوق الى الوصول اليه .. ولكن المشكلة هى: كيف نحذر الشباب من مفاجآت الحياة ؟..

قالت العصا :

ـ المشكلة الحقيقيـــــة هى أنه ما من شاب يعتقد أو يعترف أنه يجهل الحياة .. الحل الوحيد هو أن يكبروا ليعرفوا

الاختراعات تخلق الضرورات

قالت العصا :

ـ ما الذى جرى اليوم فى الدنيا ؟.. هل أصاب الأرض جدب فلم تنبت زرعا .؟ وهل انتشر فيها طاعون فلم يبق ضرعا ؟.. فى كل مكان فى أنحاءالعالم صراخ من ارتفاع تكاليف العيش .. والعالم هو العالم، والأرض هى الأرض ، والزرع هو الزرع، والضرع هو الضرع .. ولم يزد تعداد سكان الأرض كثيرا .. وما زاد غير العلم الذى تقدم وتفوق .. هذا العلم الذى يأتى كل يوم باختراع .. أما استطاع أن يزيد فى انتاج الزرع والضرع بما يخفض من تكاليف المعيشة ؟ على العكس ان تقدم العلم قد صاحبه ارتفاع فى تكاليف الحياة ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. لأن مطالب الحياة لم تعد مجرد

زرع وضرع .. ان العلم قد غير وجه الحياة العصرية .. وخلق ضرورات جديدة ... ولم يعد المجتمع الحديث بالبساطة التى كان عليها فيما مضى ... ان العامل الصغير فى مجتمع اليوم لا يكفيه مجرد الطعام واللباس والسكن ليعيش ... انه يرى من ضرورات حياته أن يدخن وأن يذهب الى السينما وأن يشترى الصحف وأن يكون فى بيته جهاز راديو .. هذا فى مصر اليوم .. أما فى أوربا وأمريكا فان هذا العامل له ضرورات معيشة أكثر من ذلك .. وكلما ارتقى العلم كثرت الضرورات ، وكلما كثرت الضرورات كثرت التكاليف وبهظت الأثمان وطالب العمال بزيادة الأجور ووقفت الحكومات فى ذلك موقف المنزعج الحائر .. لأنها بزيادة الأجور تساعد على ارتفاع الأسعار ، وبارتفاع الأسعار تعود المطالبة بزيادة الأجور .. وهلم جرا ..

قالت العصا : انها اذن مشكلة تتفاقم ولا حل لها .. لأن تقدم العلم فى اطراد .. وسوف يكون ارتفاع مستوى المعيشة فى اطراد أيضا

قلت :

ـ حقا .. ما من حل الا أن يوجد العلم اختراعا مهمته اصلاح ما يفسده العلم !..

هل تقبل أن تولد ؟

قالت العصا :

ـ لعلك اطلعت على نبـــذة غريبة نشرت أخيرا فى احدى الصحف . . مضمونها أن كاتبا فى انجلترا ألقى على جمهوره هذا السؤال : «هل تقبل أن تولد لو عرفت مصيرك مقدما ؟ . . » . والعجيب هو أن هذا الجمهور قد أجابت غالبيته بكلمة « نعم » . . .

قلت :

ـ وما وجه العجب فى هذه الاجابة ؟. ان هــذا هو الرد الطبيعى

قالت العصا :

ـ أطبيعى أن يرى انسان مصيره المظلم . . ويوقن ان حياته ستكون سلسلة من المحن والآلام والمصائب والنكبات ويعرف أن وجوده على هذه الأرض ســيكون حبيس البؤس والذل والمرض والشقاء ، وأنه لن ينفع بحيــاته

نفسه ولا غيره ، وأن وجوده سيكون كارثة على نفسه وعلى الآخرين ... ثم يقبل بعد كل ذلك أن يولد.. ليواجه مثل هذا المصير ، ويحقق مثل هذه اللعنة ؟ !..

قلت :

ـ نعم يقبل أن يولد .. على الرغم من كل ذلك .. كما ظهر من نتيجة ذلك الاستفتاء ... وهذا يدل على أن العبرة بالحياة ليست غايتها ولا مصيرها .. بل هى الحياة ذاتها .. هى الخروج من العدم على أى وجه من الوجوه .. ان الشيخ الهرم يقعده المرض والصمم ، وتنقطع الصلة بينه وبين من حوله ، ويصبح كتلة من لحم على عظم تتنفس .. فيرضى ويبقى متشبثا بهذا الخيط الواهى من خيوط الوجود .. انه لا ينفع ولا ينتفع بالدنيا .. ولكن حسبه أنه كائن حى ... وهذا عنده ليس بالشىء القليل ..

قالت العصا :

ـ أذكر أنك قلتها يوما فى كتاب « أهل الكهف » : « ان أية حياة منحة ، وأثمن منحة تعطى مخلوقا هى الحياة »

الفن واسع والعقول ضيقة

قالت العصا :

ـ ما هى مهمة الفنان ؟.. أهى أن ينقل النـــاس الى دنياه .. أم هى أن يصور دنيا الناس للناس ؟..

قلت :

ـ دعينا الآن من مهمة الفنان .. ولننظر فى أمزجة الناس .. فان فيها العجب .. كانت فرقة الشيخ سلامة حجازى تجـــوب الحضر والريف بروايات « هملت » و « روميو وجوليت » و « تليماك » فتلقى النجـــــاح الساحق .. فذهب يوما الى الريف برواية عصرية تمثل « العمدة » و « شيخ الخفراء » و « المأذون » .. فلم تلق هذه الرواية نجاحا عند أهل الريف .. فقد ســـمعوا لغتهم ورأوا صورهم على المسرح وخرجوا يقـــولون

ساخطين : « أهذه فرجة ؟ ! هذا شيء نسمعه هنا ونراه فى كل يوم !.. »

قالت العصا :

ـ ولكن هذه الرواية الريفية قد تلقى النجاح الباهر فى العواصم عند المتحضرين ..

قلت :

ـ لا شك فى ذلك ... لأن من أهـــل المدن من يحب أن يرى صورة أهل الريف .. كما أن العكس صحيح .. وهنالك من الناس من يفضل أن يرى صورته فى المرآة .. ومنهم من يؤثر مشاهدة الصـور الغريبة عليه ...

قالت العصا :

ـ ان المشكلة اذن هى فى اختلاف أمزجة الناس !.

قلت :

ـ انها ليست مشـــكلة .. بل هى شيء طبيعى .. والخطأ الحقيقى هو مطالبة الفنان بمراعاة مزاج واحد من بين هذه الأمزجة ... فى حين أن الفن يجب أن يتسع نطاقه ليشمل كل هذه النزعات فى الانسان ... فلا بد

أن يكون هناك الفنان الذى يصـــور دنيا الناس للناس ليروا أنفسهم فى عمله فيزدادوا معرفة بحقيقتهم ... كما أنه لا بد أن يكون هناك الفنان الذى ينقل النـــاس الى دنيا أخرى من صنع خياله .. ليضيفوا الى حياتهم المألوفة حياة جديدة .. يثرون بضمها ذهنيا ونفسيا ..

قالت العصا :

ـ نعم .. ان الفن واسع ولكن عقول النـــاس هى الضيقة !..



أجيال الغد

قالت العصا :

ـ ألا تلاحظ أن الأجيال الجديدة أصـــبحت أقل احتمالا للمشقة ... وأضعف صبرا على المجهود ؟.. كل ما من شأنه أن يتعب.. وكل ما يحتاج الى كد.. وكل ما يتطلب الغوص أو الأناة أو الجهد ، هو فى نظر هذه الأجيال شىء شاذ .. يجب أن يزول ؟..

قلت :

ـ هذا هو الواقع اليوم .. والعلة فى ذلك ظاهرة.. وهى أن هذه الأجيـــال شبت فى عصر مصاب بحمى السرعة .. ممعن فى اختراع آلات التبســـيط .. متسابق فى استحداث أدوات التيســير ... عصر أراد أن يجعل الآلة تتحمل عن الانسان كل جهد .. فهو فى مقعد يستطيع أن يطير فى ساعات الى أنحاء الدنيا .. وفى مقعد فى الســينما يستطيع أن يعلم أشياء كثيرة فى

عشرات من الدقائق .. وفى مقعد يستطيع بالتليفون أن يقضى حاجات فى بلاده وخارج بلاده كان لا بدلقضائها من مشقة الأسفار .. وفى مقعد يستطيع أن يطالع فى مجلة أو صحيفة خلال ساعة واحدة من الأخبار والمعلومات والثقافات والمسليات ما يصرفه عن انفاق الساعات الطوال فى الكتب والمطولات .. ثم هو فى مقعد يستطيع أن يسمع ويشاهد فى التليفزيون طرفا من ثمرات العلوم والآداب والفنون فى زمن قليل وجهد يسير .. وهكذا تتعقب الا لة الانسان الحديث فتمنعه من بذل أى مجهود .. حتى الحساب .. قيل ان آلة جبارة اخترعت ولها عقل عجيب يستطيع أن يقوم عن الانسان بحل أصعب العمليات الحسابية ..فلا عجب اذن أن نرى الأجيال الناشئة فى مثل هذا العصر قد فقدت القدرة على الصبر الطويل والجهد العنيف وكرهت كل ما يجهد الذهن ، وأحبت كل ما يخطف البصر !..

قالت العصا : الويل لانسان الغد اذن !..انه سيصبح شيئا تافها..ما قيمة الانسان وقد جردته الآلةمن مقوماته، وجعلت منه كائنا رخوا ... هى التى تفكر له وتبصر له وتسمع له وتقرأ له وتحسب له ؟.. قل اذن : ان الآلة ستصبح لها خصائص الانسان وأن الانسان .. ستصبح له روح الآلة !..

بعث الحضارة

قالت العصا :

ـ يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال .. فان صنع القنبلة الايدروجينية سيؤدى حتما الى استعمالها.. كما استعملت من قبل القنبلة الذرية .. فنحن اليوم فى عالم ساسته كالأطفال .. ما ان تقع فى أيديهم علبة كبريت ... حتى يسارعوا الى اشعال ما فيها ليتقاذفوا به .. فاذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا القنابل الايدروجينية، وقذفت روسيا على أوربا وأمريكا هذه القنابل الهائلة ، فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية .. فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد، وخرجت من هذا الفناء الذى ابتلع أوربا وأمريكا دون أن تصاب بسوء .. فهل ترى أن فى استطاعتها أن تبعث هذه الحضارة من جديد بوسائلها الحاضرة ؟

قلت :

ـ من المؤكد أن وسائل مصر الحاضرة قاصرة جدا ، ولا تكفى لبعث حضارة علمية ضخمة ...فنحن نتصور أنفسنا قد تقدمنا كثيرا لأن فى أيدينا آلات ومعامل ومصانع ... ولكننا ننسى أن هذه الالات والمعامل والمصانع تأتينا « جاهزة » من الغرب .. فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب .. وأن علينا نحن أن نصنع فى بلادنا الميكروسكوب والتلسكوب وآلة الطباعة وآلة النسيج وآلة توليد الكهرباء .. الخ .. وأن نتقن صنع العدسة والدينامو ... وأن نبحث ونكتشف ونخلق .. دون أن ننتظر من الخارج عونا .. وأن نقيم بأيدينا وعقولنا الأدوات التى تمكننا من الكشف والخلق والانتاج .. فى مثل هذه الحالة يبدو السؤال عسير الجواب .. ولو قلنا اننا نستطيع مع ذلك بعث هذه الحضارة العلمية ، لبقى سؤال آخر هو : فى كم من الأعوام نستطيع ذلك ؟.. أكبر الظن عندئذ أننا نحتاج الى ما لا يقل ، فى تقديرى ، عن مائتين من الأعوام

قالت العصا :

ـ ولكن هذه الحضارة التى ستنتج فى مصر بعد كل

هذه الأعوام قد لا تكون هى بالذات الحضارة المندثرة !

قلت :

ـ أرجو ذلك .. بل أتمناه من صميم قلبى .. انى أتمنى لمصر حضارة روحية تقوم الى جانب الحضـــارة العلمية .. انها ان فعلت ذلك تكون ، بكل بساطة ، قد بعثت فى هذا العالم مرة أخـــرى ، فى ثوب جديد ، حضارتها الأولى ومجدها القديم ..



« الله » تعويذة الأمريكان

قالت العصا :

ـ عرفت رأيك فيما لو أبادت الحرب العالميـة الثالثة العالم المتحضر ووقع على مصر عبء بعث الحضارة العلمية من جديد ... لكن ما رأيك فيما لو أبادت القنبـــلة الايدروجينية أمريكا وأوربا وبقيت روسيا وحدها هى المسيطرة على العالم ... أو عكس ذلك ... أى لو أن روسيا وأوربا هما اللتـــان أبيدتا وبقيت أمريكا وحدها هى المهيمنة على الدنيا ؟ !

قلت :

ـ أرى فى كلتا الحالين كارثة على الحضارة الانسانية .. بالمعنى الذى أفهمه من هذه الحضارة .. ويفهمـــه كثيرون من أن حضارة الانسان يجب أن تقوم على قدمين ودعامتين : الفكر والايمان .. أى العقل والقلب .. أى الدنيا والدين .. أى مد نشاط الانسان واهتمامه الى

ما هو أدنى والى ما هو أعلى .. أى الحياة فى عالمين .. عالم المادة وعالم الروح .. أى فهم وظيفة الانسان على حقيقتها المثالية : وهى أن الانسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنـــات الذى نيـــط به ربط الأرض بالسماء ...

قالت العصا :

ـ وهل تعتقد أن أمريكا وروسيا تسيران بالحضارة فى طريق آخر غير هذا الطريق ؟..

قلت :

ـ يبدو ذلك .. ان كثـــيرين من مفكرى أوربا قد استولى عليهم الخوف من الآن .. وان انجلتـــرا التى قبلت مشروع مارشال لأنها فى حاجة اليـــه ، لترفض بأى ثمن أن « تتأمرك » .. ويقول مفكروها ان النزعة الأمريكية ليست خيرا من النزعة الماركسية .. ويقول الفيلسوف الانجليزى برتراند رســـل : « ان الله عند الأمريكيين لم يعد فى الوقت الحاضر أكثر من (تعويذة) يتيمنون بها للنجاح فى الحياة أو لكسب الحروب ! »

قالت العصا :

ـ هنا حقا الكارثة .. ما من شخص يستطيع أن يجحد الله فى صدره دون أن يجحد الانسان فيه !..

الرجل الثالث

قالت العصا :

ـ لو تأملت حقيقة الدنيا التى نعيش فيهـــا الآن ، لوجدت أن المسيطر عليها رجلان:رجل السياسة ورجل العلم .. أى رجل تحركه الغريزة الأولى .. ورجل يحركه العقل الآلى ... وقد استطاعت هذه الغـريزة أن تركب هذا العقل ، وتجمح به فى سباق مروع مدمر نحو تحطيم الانسانية ... كل ذلك يحدث تحت أنظار رجل ثالث ... رجل يحركه القلب ..

قلت :

ـ تقصدين الأديب .. رجل القلم .. حقا تلك هى المشكلة التى تحيرنى الآن .. انى لأسائل نفسى كل يوم .. كلما حملت البرقيات أخبار الاستعداد الرهيب للحرب الثالثة وأســـلحتها المهلكة .. ما موقف رجل القلم فى العالم اليوم ؟.. أهو راض عمـــا يرى ؟..

لا .. بكل تأكيد .. ما من أديب واحد يقبل من أعماق قلبه أن تساق البشرية الى ذلك الهلاك المنتظر ... مهما يكن الثمن .. لأن شطرا كبيرا من الحضارة الحقة التى استقرت فى النفوس المثقفة من صنع أدبه وقلبه وروحه

قالت العصا :

ـ اذا كان هو لا يرضى ، فلماذا هو يسكت ؟

قلت :

ـ أتراه العجز ؟ ! . أترى صرير القلم قد أصبح اليوم من الأصوات الهزيلة التى يضيع أثرها بين انفجار المفرقعات ؟ أم أن القلب قد مات .. أو جبن أمام انتصار العقل الآلى ؟ ! . ذلك القلب الذى كان قديما تنفجر منه المشاعر والمثل التى قلبت التاريخ ورفعت قيمة الانسان ؟ أو انه تواطأ طامعا أو مخدوعا ؟

مهما يكن من أمر فان رجل القلم والقلب مسئول أمام المحنة الحاضرة ... واذا وقعت الكارثة فمعناها أنه لم يعد له وجود ...

صناعة الآراء

قالت العصا :

ـ ما هى رسالة الأديب والفنان فى نظرك ؟ أليست هى فى توجيه الرأى العام ؟..

قلت :

ـ أعتقد أن أسمى رسالة للأديب والمفكر والفنان ليست فى توجيه الرأى العام بل فى خلق الرأى العام.. فان التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة .. أى دفع الناس الى اتجاه بعينه ، وفرض رأى بالذات على عقولهم والسيطرة بفكرة أو معنى أو مرمى على نفوسهم .. وفى هذا انتصار بلا شك لفكرة المفكر أو لرأى الأديب أو مرمى الفنان .. ولكن هذا الانتصار الشخصى هو فى ذات الوقت خذلان لآراء عدد كبير من الناس ، وفناء لشخصية طوائف عديدة من البشر ... مثل هذا الانتصار على آراء الناس وقلوبهم مفهوم من رجل

السياسة ... لأن وجوده قائم على السيطرة المطلقة على المجموع .. ولكن الأديب أو المفكر أو الفنان رجل تكوين وتربية وخلق .. لا رجل سيطرة وانتصار .. فهو لا يحب أن يلبسك رأيه ، بل يحب أن يخلق فيك رأيك

قالت العصا :

ـ انك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا .. وتنسى أن أغلب البشر لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى ... انما هم يستسهلون أن يرتدوا الآراء التى تصنع لهم صنعا ...

قلت :

ـ نعم هنا المشكلة .. وانها لتتفاقم .. لأنه باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضرورى للناس أن يتخذوا لهم آراء كما يتخذون لهم سيارات وأردية وأجهزة للاذاعة .. وان الكسل والسرعة والسهولة تدعوهم الى طلب هذه الآراء مصنوعة عند من يحسن تقديمها اليهم فى صناديق مجهزة مبسطة

قالت العصا :

ـ لعلنا اقتربنا من الحقيقة .. وهى أن عمل الأديب أو المفكر أو الفنان هو خلق أولئك الذين يصنعون الآراء للجماهير !..

قيمة الاشخاص والاشياء

قالت العصا :

ـ ألست ترى أنالانسان كلما صعد فى مراقى الفكر بدت له الأحداث والأشخاص هزيلة ضئيلة ؟..

قلت :

ـ هذا صحيح ... ولا يصدق هذا على الارتفاع الفكرى وحده .. انما يصدق ذلك على كل ارتفاع.. فمن يصعد الى قمة الهرم يبصر الناس كأنها النمل ، والبيوت كأنها الأكواخ ، والسيارات كأنها ألاعيب أطفال ... ولكن السؤال الجدير أن يطرح هو : هل من يبصر الأشياء والأشخاص من العلو ، يراها على حقيقتها ؟

قالت العصا :

ـ وهل من يبصر الأشياء والأشخاص وهو فى مستواها يراها على حقيقتها ؟

قلت :

ـ لست أدرى .. وليس من السهل أن نعرف أين نجد حقيقة الأشياء والأشخاص ؟.. أهى فى تلك الضآلة التى نراها عليها من العلو ؟. أم تلك الضخامة التى نراها عليها من السفل ؟ .. ان أصعب شيء فى الوجود هو صحة الحكم على حقيقة الأشياء والأشخاص .. لأن هذا يتطلب أن تنظر الى هذه الحقيقة من جملة زوايا .. وأن تكون على جانب كبير من المعرفة والتجربة .. وأن تتأنى فى مراجعة القيم والأقيسة والأبعاد .. حتى تستطيع بعد كل ذلك أن تصدر حكما يقرب من الصحة .. لذلك طالما سمعنا أن عظماء الرجال والقادة هم الذين يستطيعون أن يصيبوا فى الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص .. ان أعظم ما يحملنى على احترام شخص هو عدم خلطه فى القيم .. وكثيرا ما احترمت أشخاصا لما يبدو من ثقفتهم ، فما ان يخلطوا فى قيم الأشياء .. والأشخاص ، حتى ينهار احترامهم من نفسى ..

قالت العصا :

ـ صدقت .. ان الشخص ذا القيمة هو الذى يعرف القيم كما يعرف الصائغ درجات الذهب !...

المقامر والمرابى

قالت العصا :

ـ لو تأملت الطبائع ، وتتبعت وسائل نشاطها ، لتبين لك أحيانا أنها تكاد تنقسم الى فئتين : فئة تختار للوصول الطريق القصير على ما فيه من خطر .. وفئة تختار الطريق الطويل الذى لا خطر فيه .. فئة تمتطى الحظ .. وفئة تمتطى الصبر .. وحصان الحظ سريع ،ولكنه قد يكبو .. وسلحفاة الصبر بطيئة ولكنها لا تكبو أبدا .. وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذى بينه وبين الهدف .. وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن فى الوصول الى الهدف ..

قلت :

ـ هذا التقسيم لا يصدق على الأفراد وحدهم .. انما هو يصدق أيضا على الأمم .. فمن الأمم من ادخرت قسطا من القوة فلم تلق به كله على مائدة الحظ

.. وتنزل به ميدان المغامرة .. بل وقفت به تتـــربص الفرص ، تنفق الضئيل منه ليعود عليها بعد زمن بفوائد كثيرة تجيئها لتضمها الى رأس المال ، ثم تأخذ منه بعضه القليل ، اذا لاح صيد أو ظهرت سانحة ، فتعطي بحذر، وتدع الزمن ينضج الثمر على مهل .. فتحصد وتضيف، ثم تعـــاود الكرة ، خطوة خطوة ، وصفقة صفقة .. متخذة من الطمع مركبة ، ومن الصبر والزمن جوادين ... هكذا تكونت الامبراطورية البريطانية مثلا فى يوم من الأيام .. أما الأمة الألمانية مثلا فقد رأت أنهـــا تملك ذات يوم من القوة والكفاءة والنبوغ ما يؤهلهـــا لمركز ممتاز .. وكبر على نفسها أن تستجدى الزمن أو تختلس المغانم من الظروف المواتية ، ومن ضـــعف الضعفاء ، فآثرت أن تواجه الحظ بكل ما فى يدها ،وأن تنتزع منه مجدها قسرا ..

قالت العصا :

ـ حقا .. هذا خير مثل لاختلاف الطبائع والوسائل ... فى ألمانيا طبيعة المقامر ... وفى انجلترا طبيعـــة المرابى !..

الحاصل صفر

قالت العصا :

ـ من أبرز العيوب فى مصر والشرق العجـــز عن الاستمرار ... فقلما ترى شخصا يستأنف عمل شخص آخر ... فى كل نواحى النشاط ترى الاتجاه الغالب هو أن يبدأ الشخص بهدم عمل سلفه ، قبل أن يفكر فى مباشرة عمله .. فى السياسة والفكر والأدب .. والفن الخ .. شعارنا هو : كل ما تم قبلى لغو يجب أن يزول !..

قلت :

ـ هذا حقا شعارنا ... بينما شعار غيرنا من الأمم التى أنتجت هو : كل ما تم قبـــلى ربح يجب أن يزاد عليه .. ففى السياسة خطوات تتلوها خطوات ، وخطط تدعمها خطط ، والحجر الذى أرسى يقام عليه حجر ، فاذا نحن أمام برنامج اجتماعى ضخم كأنه بنيان ينمو على

توالى الأزمان ، على الرغم من اختلاف الحكومات ..
وفى الفكر والأدب والفـــن : المجهودات تضاف الى المجهودات .. ويقدر الخلف أعمال السلف ، ويرون فيها ثروة للأمة يجب أن يتولد منها ثروات .. فيظلون يدرسون ما تم بروح الاهتمام ، وينظمون ما حقق وما هو فى سبيل التحقيق، ويضعون الأفكار فوق الأفكار كمن يضع الدينار فوق الدينار .. فاذا نحن أمام كنـــز من كنوز القريحة الانسانية تفاخر به أمته وتدل به على أهل الشرق الغارق فى أهوائه ، النائم فى لحظات يهدم آخرها أولها وتنسى احداها الأخرى ..

قالت العصا :

ـ لعل الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع .. فهى تجمع العمل على العمل ، فالحاصل بالطبع عمل .. بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح .. فهو يطرح العمل من العمل والحاصل بالطبع صفر !..

الشرق الشحاذ

قالت العصا :

ـ لماذا ينظر الغرب دائما بعدم اكتراث الى الشرق العربى ، ويقف منه موقف غير الحافل بأمره ، ويلتفت اليه الالتفاتة العابرة ، ويشير اليه الاشارة الخاطفه ولا يراه الا كائنا جغرافيا ، يقوم على هامش الحضارة الانسانية ؟..

قلت :

ـ السبب فى ذلك بسيط : وهو أن الشرق العربى يقف دائما من الغرب موقف السائل الذى يمد يده بطلب .. فهو يقول للغرب أعطنى حريتى .. وأعطنى استقلالى .. وأعطنى قروضا .. وأعطنى علما .. وأعطنى أفكارا .. وأعطنى مبادىء .. وأعطنى آلات .. وأعطنى مصنوعات .. وأعطنى خبراء .. وأعطنى .. وأعطنى .. الخ .. ما من مرة قال الشرق للغرب :

« خذ » حتى يسترعى اهتمامه .. ان الانسان قد جبل بطبعه على أن يهتم بمن يعطيه لا بمن يأخذ منه . وماذا يكون نصيب ذلك الذى يتبعك دائما فى الطريق يقول لك فى كل حين : « أعطنى من فضلك .. » ؟ ألا يكون نصيبه منك فى أغلب الأحيان : « الله يحنن عليك ! » تقولها بغير اكتراث .. وقد يخطر لك أن تستخدمه فى أن يحمل عنك ثقلا ماديا لا شرف فيه ، أو أن تستغله فى معاونتك معاونة مهينة مما يقوم به الخدم والعبيد والتابعون ؟ ! .. فلو أن الشرق قال للغرب ذات مرة : « خذ منى فكرة تنفعك » لنظر اليه الغرب فورا نظرة الاهتمام والاحترام ..

قالت العصا :

ـ وماذا عندالشرق العربى اليوم مما يستطيع أنيعطيه للغرب ؟ !..

قلت :

ـ مجرد الاشتراك فى حل مشكلاته يكفى .. ما من مرة قال الشرق للغرب انى مشغول بحل قضية لك أيها الغرب لا لى .. حبذا لو أن « جامعة عربية فكرية » تنشأ لبحث مشاكل الغرب للغرب .. عند ذاك يعترف الغرب أن الشرق ليس مجرد شحاذ !..

العصر « الشكوكى »

قالت العصا :

ـ العالم المتحضر يعيش اليوم فى عصر الذرة .. أى فى عصر يتسم بروح السباق العنيف فى ميـــــدان الاكتشافات العلمية والفنية ، وروح التنافس البالغ فى ميدان الأفكار والمبادىء الاقتصادية والاجتماعية .. أما نحن فان الناظر الينا يدهش ويحار ولا يدرى أى روح تسيطر الآن على الحياة المصرية ؟ !

قلت :

ـ ان النظرة الفاحصة الى حياتنا المصرية اليوم لايمكن أن تلم الا بشىء واحد : هو أن الروح المسيطر علينـا الآن هو : روح التهريج .. فنحن قوم نريد أن نضحك ونمزح ونهزل فى كل حين . ونحن نريد من كل شىء المظهر ولا نعبأ بالجوهر .. كل مشروع حيوى ينقلب عندنا الى احتفالات واعلانات ولا شىء بعد ذلك .. وكل

هدف عندنا هو الوصول الشخصي بطريق الطبل والزمر ولا عمل خلف ذلك .. لقد أصبح شعار النجاح فى كل الأفواه : « هرج تصل » .. حياتنا قد اتسمت بروح التهريج الى حد نرى فيه الصفوة من علمائنا فى الطب أو الهندسة أو الكيمياء أو الزراعة أو القانون الخ ... والطبقة المثقفة من أساتذة الجامعات وطلابها اذا أرادوا احياء حفلاتهم السنوية لجأوا الى جماعة المغنين السوقيين والمضحكين المبتذلين والراقصات الماجنات ، ويتهالكون على الاذاعة ، فلا يخطر لسامع أنها لعلماء أفاضل !..

قالت العصا :

ـ حقا .. العالم يعيش فى عصر الذرة .. ومصر تعيش فى عصر «شكوكو» .. وهو ولا شك رمز لعصر انحلال خلقى يمكن أن يفتك بروح أمة وكيانها أسرع مما تفتك بها قنبلة ذرية !..

الانسان . . ذلك الجبان

قالت العصا :

ـ من طبائع النـــاس التى تنم على ما ركب فيهم من خسة ذلك الاحتقار ، الذى ينظـــرون به الى الكلب ، وهو لهم الصديق الأمين المحب . .

قلت :

ـ حقا ان الكلب للانسان أكثر من صديق . . وأين هو الصديق الذى يخدمك طول العمر ، دون كلل ولا ملل . . . يرعى غنمك ، ويحرس دارك ، ويتبعك فى الرخاء والشقاء ويقودك فى ظلام الليل ، ويجلس عند قدميك يؤنس وحشتك ووحدتك ، ويدافع عنـــك اذا مسك سوء أو هددك خطر ، فاذا أشرت اليه بالابتعاد ضيقا به ، أو للخلو بنفســك وصحبك ، ابتعد صاغرا بأدب ومودة ، ووقف منتظـــرا على مرمى بصرك أو

صيحتك .. فاذا بدرت منه هفوة ورأيت تأديبه فأفرطت وقسوت وانهلت عليه ضربا بالعصا أو ركلا بالقدم ،فانه يقعى على ذنبه أو يطأطىء برأسه ويتلقى تأديبك بصبر جميل ، وهو القادر أحيانا على أن ينقض عليك بمخلبه ونابه ويفتك بك فى طرفة عين .. ولكنها الصداقة والمودة والحب العميق ... فهمها هذا المخلوق العجيب على أكرم وجوهها .. وهو مع ذلك ليس بالنذل ولا بالجبان .. فكلنا يعرف مواقفه التى تنطق بالشجاعة والوفاء والاقدام .. فكم من مرة هجم ذئب أو وحش على انسان أو غنم انسان فانبرى كلبه للمهاجم فغلبه أو طرده أو مات فى الجهاد ... وكم سمعنا عن قصة ذلك الرجل الذى نهض فى الصباح فوجد كلبه صريعا تحت فراش طفله ، وبين مخالب الكلب ثعبان ضخم مقطع اربا .. فأدرك ما وقع فى الليل .. وما دفعه الكلب من ثمن لينقذ الطفل !. ولكن العجب هو أن الناس بعد كل ذلك يحتقرون الكلب !.

قالت العصا :

– يحتقر الناس الكلب على وفائه وأمانته لأنه لا يفترسهم !..

مطية الانسان

قالت العصا :

ـ هل تعتقد أن هناك ما يسمى ثروة النفس حقـــا بالمعنى الذى يطلق على ثروة « المال » ؟..

قلت :

ـ أعتقد أكثر من ذلك .. ان « الثروة » هبة من الله ... وهى قد تكون فى النفس .. وقد تكون فى المال ... وفى النادر جدا أن يصطفى الله شــخصا واحدا يمنحه الثروة فى المال والنفس معا .. ولكن القــاعدة الغالبة هى أن نرى فى هذه الدنيا صاحب المال قد حرم من ثراء النفس ، ومن كانت له ثروة النفس حــرم من ثروة المال ... كما أن من الخلائق من حرم الثروة على الاطلاق .. سواء فى المال أو فى النفس ..

قالت العصا :

ـ أهو قدر مدبر أم نظام طبيعى ؟..

قلت :

– انى لا أفرق كثيرا بين النظام والقـــدر .. لأن تدبير الله هو تنظيمه ، وما نسميه قدره هو فى أكثـــر الأحيان قانونه ... وفى حالتنا هذه يجرى كل شيء على سنة النظام الطبيعى الذى ركبه الله فى الانسان .. فالشخص الذى يشغل بجمع المال ، مع ما فى وسائل جمعه عادة من عناصر تأباها النفس الأبية ، الصـــافية النقية ، يرى في هـــذا المال من غير شك الفضيلة الأولى التى تستحق منه هذا الجهاد والاجتهاد وتكريس الحياة، وشغل البال .. وهو بهذا الاهتمام يجعل « نفسه » من حيث لا يريد ولا يدرى مطية لهدفه .. فهو اذن يجعل « المال » فى مكان الراكب و «النفس » فى مكان المركوب .. بينما نجد العكس فيمن انشغل عن جمع المال بالفكرة السامية أو العاطفة العالية .. فهو يجعل المال مطية .. ولا يسمح له أن يشغل من حياته أكثر من القـــــدر الضرورى للوجود ، فهو اذن يضع « النفس » فى مكان الراكب و « المال » في مكان المركوب ..

قالت العصا :

– اذا أردت اذن أن تعرف انسانا فانظر الى مطيته : هل هى « النفس » أو هو « المال » !..

نوع من النبوغ

قالت العصا :

ـ يخيل الى أن فى مصر خبيرا عبقريا مهمته الدقيقة هى : أن يضع كل شىء فى غير محله !..

قلت :

ـ هذا صحيح .. فان هذه الاجادة والدقة والاتقان والتفنن فى وضعنا الأشياء فى غير محلها قد بلغت حدا لا يمكن أن نعزو فيه الأمر الى مجرد الفوضى أو المصادفة أو الهوى .. انما هى سياسة مرسومة .. أو خطة موضوعة .. أو برنامج مقرر أو نظام مدبر .. لكأن لدينا حقا رجلا ممتازا موهوبا له سلطة كالسلطة التى كان ينبغى أن تكون لرئيس ديوان المحاسبة .. تعرض عليه الأشخاص والمناصب والأموال والمرافق .. فيسأل : ما هو المطلوب لهذا المنصب ؟ فاذا قيل له : مهندس .. قال : ضعوا فيه محاميا .. واذا قيل له :

محام .. قال : ضعوا فيه طبيبا .. فاذا وجد بالمصادفة ان هذا المحامى أو الطبيب على شيء من الدراية والكفاءة .. بحث وكد واجتهد حتى يعثر على الشخص الذى لا يدرى كثيرا أو قليلا عن الموضع الذى يوضع فيه .. ومثل هذا يتبع فى انفاق المال .. فاذا قيـــل له : نريد اعتمادا لادخال ماء الشرب فى القرى ، قال : لا داعى لشرب الفلاح، اصنعوا بالمال دارا فخمة للبريد .. واذا قيل له : دبر لنا دولارات لشراء أدوية وآلات ،قال :بل اشتروا بها جوارب وسيارات .. الخ ..

قالت العصا :

ـ أو تظن من السهل دائما اتقان هذا الفن ؟.. ان الذهن الذى لا يخطىء فى وضع الشيء فى غير محله ، لا يقل نبوغا عن الذهن الذى لا يخطىء فى وضـــع الشيء فى محله .. وكل أمة لها نوع النبـــوغ الذى تستحقه ! ..

خزان آخر ...

قالت العصا :

ـ لست أدرى أأنت من المتفائلين أم من المتشائمين . . ولكن الذى لا شبهة فيه للنظرة العـــابرة هو أن مصر تتقدم سريعا الى أسفل . . ويكفى أن تقارن بين ما كان عليه الحال منذ عشرين عاما ، وما وصل اليه الحال اليوم فى كثير من النواحى العلمية والخلقيـــة والاجتماعيـــة والفكرية والفنيـــة . . الخ . . انظر الى أساتذة الجامعة فى الماضى وأساتذتها اليوم . . وانظر الى الأخلاق العامة فى المـاضى ، والى الأخلاق العامة اليوم . . وانظر الى حرية الفكر فيما مضى وحرية الفكر فى السنين الأخيرة . . وانظر الى ملاهينـــا وأغانينا بالأمس وملاهينـــا وأغانينا وحفلاتنا فى الأيام الحاضرة ، أيمكن أن نرى فى كل هذا شيئا غير سير سريع نحو الانحدار ؟

قلت :

ــ لا أريد أن أتشاءم أو أتفاءل قبل بحث الأسباب .. ان مصر قد تحولت فى السنوات العشرين الماضية تحولا اقتصاديا ملحوظا ، كان من نتيجته اثراء طبقة من الناس اثراء سريعا أدى الى نشر مثل عليـــا جديدة فى المجتمع .. أو على الأصح مثل ليست عليا .. لأنهـا بذرت فى النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار .. ولكن هذا الأمر ليس بوقف على مصر وحدها .. كل بلاد العالم حدث فيها مثل ذلك ، يوم تمت فيها هذه التحولات الاقتصادية .. مع هذا الفارق : وهو أن تلك البلاد الأخرى كان فيها مثل عليا حقيقية قوية قبل أن تغزوها المثل الدخيلة غير العليا .. فلم يستطع هذا الغزو أن ينال كثيرا من التقاليد العريقة المغروســـة فى العلم والخلق والفكر والفن .. أما مصر فلم تكن قد تهيأت بعد لمثل هذا الغزو المادى ..

قالت العصا :

ــ العلاج الآن هو أن نبادر باقامة خزان آخر الى جوار خزان أسوان .. خزان للمثل العليا ...

الريحاني الحي ...!

قالت العصا :

ـ كنت تصغى أمس الأول الى شريط سجل عليه فصل للريحاني ... وكان التأثر باديا عليك، لا يستطيع الضحك أن يحجبه ... وكانت شفتاك تهتزان بكلمات .. ترى ما هى ؟

قلت :

ـ لعلى كنت أستنزلها فى سرى على من أهمل فى تسجيل أعمال هذا الفنان .. وبركات كنت أدعو بها لمخترع هذا الجهاز العجيب !.. اختراع يكاد يلغى الموت الفناء ... فها هو ذا الريحانى يضحك ويضحكنا ،ويبدع ويمتعنا وهو فى قبره عظام نخرة !.. لقد سجل الشريط صوته وهو الآن فى الأموات ، وسجل معه أصوات الناس من جمهوره ، وهى تضج بالضحك والاعجاب ، وأكثر هؤلاء الناس اليوم ولا شك أحياء

يرزقون . . . ولكن السامع يخيل اليه أن هـــذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء !.. ولست أعنى بالحيــاة هنا الحياة المعنــوية .. بل أقصد الحياة المادية نفســـها ... لقد كان شعورى أن الريحـــانى حى بكل معنى الحياة .. انه يذيع مسرحيته وأنا أسمع .. اليوم وهو فى القبر كما كان يفعـــــل بالأمس وهو فى مسرح « ريتس » .. لا أكاد أشعر بفرق .. كل الفرق هو بالنسبة اليه هو .. انه هو الذى لا يستمتع بتصفيقنا أو باعجابنا ... وانه مستمر فى منحنا فنه ، ونحن انقطعنا عن توصيل شكرنا اليه .. انه القادر على التأثير فينا ، ونحن العاجزون عن التأثير فيه ..

قالت العصا :

ــ لئن كانت الحياة فعلا وتفاعلا وأثرا وتأثيرا .. فهو بالنسبة الينا الحى .. ونحن بالنسبة اليه الأموات !..

أصدقاء الرخاء

قالت العصا :

ـ ما الذى ترجوه من الصديق ؟. وما الذى ينبغى له أن يفعل حتى يكون جديرا أن يوصف بالوفى .. أيحسن به أن يقف الى جانبك فى وقت الشــــدة وأن يختفى عنك وقت الفرج .. أم يخلق به أن يقبل عليك وقت الفرج ، ويختفى عنك وقت الشدة ؟ !

قلت :

ـ هناك فرق بين ما نتعلمه فى الكتب وما نتعلمه فى الحياة ... أما الكتب فهى تقول لنا ان الصديق الحق هو الذى يلازمنا فى الشدة ويؤازرنا فى الضيق .. فاذا جاء الفرج ابتعد عنا حياء وخشية من أن يثقل علينا أو يوحى الينا بأنه ينتظر على وفائه ثمنا .. أما الحياة فهى تقول العكس وترينا الصـــديق المرموق أنه ذلك الذى

يختفي عنك وأنت في شدتك .. أو يشغل عنك باكتساب المغانم في صحبة غيرك .. حتى اذا ما ابتسمت لك الدنيا وانقشع غيمك ، ظهر يجرى نحوك مهللا مكبرا ، ومكث بجوارك الليل والنهار ملازما مؤازرا ..

قالت العصا :

ـ ومن الذى له الغلبة ؟ !

ـ العجيب أن الغلبة لذلك الذى يعرفنا ويلازمنا وقت الرخاء !.. ولعل هذا هو الطبيعى الذى لا عجب فيه .. فالغلبة دائما للجرىء .. حتى وان كانت الجرأة على معنى الصداقة ..

قالت العصا :

ـ وهل يستطيع الانسان أن يحترم صديقا من هذا الطراز أو يعتمد عليه ؟. ولكن من يدرى ؟.. لعل الانسان يحب الصداقة التى تسره أكثر من الصداقة التى يحترمها !

عصير الذهن

قالت العصا :

ـ هل رأيت هذه المكتبة العامرة بالكتب فى أشهر ميادين القاهرة ، كيف تحولت أخيرا الى حانوت للمرطبات ؟ ! ان صاحبها هو صاحبها لم يتغير .. ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من « كتبى » الى « شربتلى » !.. وعندما سئل فى ذلك قال :

ـ الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن .. انهم يريدون عصير الليمون !..

قلت :

ـ هذا صحيح مع الأسف .. وهى ظاهرة خطيرة تستحق العناية والعلاج ، فان انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة كبرى لأمة فى طريق التحضر .. وما قيمة التعليم فى أمة اذن ، اذا كانت نتيجته تخريج زبائن

للمشارب لا للمكاتب ؟ ! ان أبقى درس وأهم كسب للطالب فى المدرسة ليسا فى تلك المعلومات المحددة ، التى ستنسى حتما بعد حين ، ولكنهما فى غرس ملكة المطالعة التى ستلازمه في كل حين .. لا خير ولا نفع فى أرقى المدارس والجامعات اذا خرج منها الطلاب يلعنون كتبهم ويختمون بالشمع الاحمر على رؤوسهم بينما الطالب الذى ينشأ فيه حب المطالعة والاطلاع ، تنشأ في عين الوقت جامعة كبرى فى نفسه تزوده بالمعارف المتجددة طوال أيام حياته .. ذلك واجب المدرسة الأول : تعلمنا حب القراءة .. وتمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل .. ثم تدفعنا الى الحياة نزدرد ثمرات الذهن ...

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الانسان يولد زبونا بالفطرة لعصير الليمون .. ولكنه لا بد أن يعد اعدادا ليصير زبونا لعصير الذهن !..

الفن فى البرلمان

قالت العصا :

ـ اعتاد البرلمان المصرى فى كل عام أن يتـــربص بفريسة هزيلة ضئيلة . . . ما ان تتقدم اليه تتعثـــر فى هزالها وضآلتها ، حتى يعمل فيها طعنا وتقطيعا وشطبـا بالأقلام الحمراء . . . هذه الفريسة المسكينة هى اعتماد فن التمثيل !. . فما هى الضغينة المقيمة بين البرلمان وبين الفن ؟ !

قلت :

ـ ما أحسبها ضغينة . . ولكنه احتقار وقلة تقـدير لشىء لا يبدو نفعه لكل الأذهان . العلاج هو أن نعرض الفن وقيمته ونفعه القومى أمام العيون . . ولا أريد فى هذا المقام أن أسوق غير مثال واحد ، مثال لا مبالغـــة فيه ، لأنه الواقع ، وأدعو الناس الى تحريه . . من أهم

دعائم الدعوة العالمية لاسرائيل فرقتان عندها للتمثيل . .
احداهما تسمى « الهابيما » والثانية تسمى « أوهيـــل »
بذل فيهما من العناية ما ارتفع بهما الى درجة التفـــوق
الدولى ، فجابتا المدن العظمى فى أوربا وأمريكا تعرضان
روائع الفكر الخالد من أعمال شكسبير وراسين وستيفان
زفايج مما جعل صـــحف تلك البلاد المتحضرة تتحدث
بفضلهما على الفكر العـــالمى والثقافة العالية . . ولهاتين
الفرقتين عشاق ومعجبون فى العواصم الكبرى ، مع أن
التمثيل فيهما بالعبرية . . ولقد فازتا قبل الحرب بمبالغ
طائلة وتبرعات هائلة مكنت اسرائيل من تشييد مسرح
فى تل أبيب تكلف نحو مائتى ألف من الجنيهات ،يعتبر
من أفخم مسارح العالم . . .

قالت العصا :

ـ حقا . . نحن نسخو بآلاف الجنيهات على مقـــال
سخيف تنشره صحيفة أجنبية دعاية مأجورة لنا . . ونضن
بهذا المبلغ على انشاء فن قومى يستطيع أن يقوم لنا بدعاية
كريمة أمام السائحين فى الداخـــله وأمام الجاحدين
لحضارتنا فى الخارج ! . .

هل المداد هباء ؟

قالت العصا :

ـ يخيل الى أن الكتابة هى أضعف وسيلة للتأثير فى المجتمع ... وذلك أن من لديه فى الغالب حسن الاستعداد لأن يسمع نجده فى أكثر الأحيان لا يقرأ .. ومن يقرأ فهو قلما يسمع ... ولو كان فى الكتابة نفع ، لرأينا المجتمع قد تغير منذ أمد طويل ... ولكن كل قارىء يقرأ وكأن الكلام لا يعنيه .. واذا فطن فانه يبتسم ـ ويطوى الورق ويقول : « كلام ! » .. أو يقول : « تمام » .. ثم ينسى كل شىء بعد حين .. لماذا ؟.. ولمن ؟ .. تجهدون أنفسكم اذن يا معشر الكتاب فى اهراق هذا المداد الذى لا تبتلعه أرض ولا نفس ؟ ..

قلت :

ـ حقا .. هو جهد لا يرى له أثر .. فالماء يروى

الشجر ، وتحصد منه بيدك الثمر .. ولكن المداد ؟..
ماذا ينبت ؟.. أين هو الثمر الذى نراه بأعيننا قد أينع
فى الناس بفعل المداد والقلم ؟.. انه لعمل مجحف
ميئس .. ومع ذلك يكابده صاحبه ويصر عليه وهو
موقن أن شيئا لن يتغير وأن نفسا لن تتحول .. على
الأقل بالسرعة التى تشعره بلذة النجاح ولكنه يمضى
فى الكتابة وينسى النتيجة .. الى أن يعتاد العمل دون أن
يسأل عن الأثر .. وكأنه ثور الساقية ، يدور بها
مغمض العينين ، لا يدرى اذهب ماؤها فى الهباء أم ذهب
فى الغيطان ؟ !

قالت العصا :

ـ ربما كان هذا هو السبب فى قصور القلم فى الظاهر
وهباء مداده ... ان غيطان النفوس تحتاج الى أجيال ،
حتى تصل الى أغوارها مياه الأفكار ، وتهيىء أديمها
للنبت والاثمار !..

قوة الروح

قالت العصا :

ـ هل تعتقد حقا أن الروح يمكن أن يكون لها أثر فعلى فى مجتمع ما . . وان القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة يحسب حسابها فى بلد من البلاد ؟ . .

قلت :

ـ أومن بذلك كل الايمان . . على شرط أن تتجلى الروح بنـورها وحده . . لا ببرق زينة مادية . . وأن تعتمد القيم الروحية علىجوهرها وحده . . لا على مظاهر قوة دنيوية . . ان اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعـل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة . . وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جمـاعة يستمدون هيبة وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن المال والجاه . . لهو اليوم الذى يمكن فيه اقنـاع

الناس بوجود الروح .. ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتى بهما الجاه والمال .. فهم اذن معذورون اذا اندفعوا نحو هذا النهر الأصفر .. يعبون منه ما استطاعوا ، ليرووا ظمأهم الذى لن يروى .. لأنهم يجهلون وجود ذلك الجدول الآخر الصافى الخفى الذى لا بريق فيه ، ولكن فيه أثر الرى .. ما من مثل واحد قام ليثبت للناس أن رجلا واحدا بغير المال والجاه استطاع أن يكون سعيدا وأن يكون قويا .. خلا الأنبياء والرسل .. وخلا بعض الأفذاذ من الرجال أمثال « غاندى » .

قالت العصا :

ـ أوليس فى هؤلاء الدليل ؟.. كلهم غيروا وجه العالم .. يكفى أن ينهض رجل واحد .. رجل روح حقيقى ليقلب التاريخ .. أو بعد هذا نشك فى قوة الروح ؟ !

لو حكم الفلاسفة

قالت العصا :

ـ كلما حل بالدنيـــا الخراب ، وفتكت بالانســـانية الحروب وتوالت المصائب والمآسى ، تساءل الناس : لماذا لا يقود الفلاسفة زمام العالم ؟.. انهم بتفكيرهم المتسامى عن الغرائز قد يستطيعون تجنيب العالم ويلات العواطف المتأججـــة التى تلهب النفـــوس وتدفعها الى المجازر والنكبات !..

قلت :

ـ ما من شك أن الفلاسفة لو تسلموا أعنة الدنيا لما وقع فيها شيء مما نراه الآن .. بل لما وقع فيها شيء على الاطلاق .. أذكر أن أحد المفكرين تســـاءل يوما : ما الذى يجرى لو أن مؤلفى المآسى المشهورة وضعوا بدل أبطالهم فلاسفة .؟ لو أن شكسبير وضع بدل عطيل

فيلسوفا ، لما قتلت ديدمونة ! ولو أن سوفوكل وضع بدل أوديب فيلسوفا لما فقأ عينيه ... الوحيد من بين أبطال المآسي الذى أريد له قدر من التأمل الفلسفى وهو « هاملت » ظل مترددا بين الاقدام والاحجام ، لا يدرى أهو مصيب أم مخطىء، حتى كادت تفلت منه كل فرص العمل .. الرواية الكبرى أيضا وهى الحياة .. لو أن أبطالها المحركين لمصائرها كانوا فلاسفة ، لا ساسة ولا قادة جيوش .. لوقفت حركة هذه الرواية من قديم عند الفصل الأول !.. فالفلاسفة بتحكمهم فى الغرائز ما كانوا ليسمحوا بحروب ولا بنزاع ولا بثورة ولا بانقلاب الخ...أى أن التاريخ يجب أن يقف عاطلا بلا عمل ، أمام حكمة الفلاسفة التى تمنع تلك النزعات والأخطاء والأهواء التى تنبت منها الحوادث التى تهز الناس وتتيح لهم التغير والتطور ..

قالت العصا :

ـ حقا .. لا بد فى «جهاز » الانسانية من «محركات» الغريزة الى جانب « فرامل » الحكمة ..

كرة القدم

قالت العصا :

ـ أجمع هواة كرة القدم ممن يشـــاهدون المباريات الدولية التى تجرى بين الفرق المصرية والفرق الأجنبية على ظاهرة بعينها : هى أن مصر تملك لاعبين من الطراز الأول .. لو أنك أخذتهم فردا فردا لتبين أنهم أمهــر وأبرع فى الغالب من زملائهم الأجانب . وكل منهــم يأتى بالمدهش المعجب فى حلبات اللعب .. ولكن هؤلاء الأفراد الممتازين اذا انتظمتهم المجموعة، أى ما يسمونه « التيم » ، وواجهوا المجمـــوعة الأخرى الأجنبية فسرعان ما يظهر ضعفها أمام « التيم » الأجنبى !..

قلت :

ـ السبب واضح هو أن « التيم المصرى » كل فرد فيه يلعب مستقلا عن المجموعة .. وتطغى عليه براعته

الخاصة ، فيتصور أن فى امكانه أن يقـــذف الكرة الى الهدف بقدمه وحدها . ويؤدى ذلك الى ضياع الرابطة بينه وبين زملائه اللاعبين والى اختلال النظام الذى يجعل منهم وحدة منسقة .. فاذا الفريق مفكك .. واللعب مرتجل .. والمصادفة هى التى تقرر النجاح أو الفشل. فى حين أن « التيم » الأجنبى ، كل فرد فيه مكمـــل لزميله ، لا منفصل عنه ، معاون له وداعم ، لا عائق ولا مزاحم .. يرى الفخر فى أن تحصل المجموعة كلهـا على النصر ، دون نظر الى السبب فيه ..

قالت العصا :

ـ تلك هى سمات المجتمع الراقى ... بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا .. وأن أبناء هذا المجتمع المتين لتظهر فيهم صفات التعاون والتعاطف، جدوا أو لعبوا ،فتقودهم الى الفوز المبين ..

لا موت فى أمة حية

قالت العصا :

ـ من مضحكات مصرالحديثة أن نسمع فيها من يتكلم عن « الخلود » وكل شيء فيها يموت بيد الجهل والاهمال والجحود ..

قلت :

ـ حقا .. نحن أمة تعيش من يوم ليوم .. لا ماضى تواصله .. ولا حاضر تجد فيه .. ولا مستقبل تبنيه .. يظهر فيها أحيانا النبوغ والذكاء والاجتهاد كأنها زهرات نبتت فى مستنقع تزهر فى الصباح وتذوى مع المساء .. دون أن تجمعها يد فى آنية ... ولنحص ما بقى لنا أو ما أبقينا عليه من آثار أمواتنا .. فى العلم .. ألم يكن لدينا عالم أو اثنان تركا بحثا أو بحثين ؟ .. من الذى قام بعدهما يمضى فيه أو يتمه أو ينميه ؟..

فى الفن .. ألم يكن عندنا موسيقى أو اثنان تركا لحنا أو لحنين .. من هم المغنون الذين يرددونهما بعد موتهما ؟.. المغنى اليوم يلحن لنفسه أغانيه التى ستموت طبعا بموته ، كما حدث لمن سبقه .. وهلم جرا ..

وفى الأدب.. ألم يكن لنا أديب أو أديبان تركا مؤلفات ذات معان واتجاهات .. من هم الأدباء أو الأساتذة الذين نهضوا بعد موتهما يفحصون ويشرحون مرامى هذه الأعمال وما عكست من تجارب مؤلفيها ، كما يحدث عادة لأى أديب يموت فى بلد متحضر ذى أدب لا يموت ؟.. ولكننا فى مصر كل ما نعمل لأمواتنا النوابغ حفلات تأبين ، ينسون بعدها الى آخر السنين.. وبعد هذا كله يحلو لنا أن نتكلم عن حضارتنا الحديثة ! دون أن نفطن الى أن الحضارة ليست الا عملية استمرار للجهود والآثار ..

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الأمة الحية يحيا فيها أمواتها .. والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها ..

الثمار الضائعة

قالت العصا :

ـ يخيل الى أحيانا أن حياة الأفراد والأمم كحياة شجرة فى غابة افريقية ، ضالة فى المجاهل لم تطأها قدم بشر ... فهى تنمو وتثمر ، لمجرد النماء والاثمار ، مدفوعة بحيويتها الطبيعية ثم تذوى وتموت ، دون أن يقتطف ثمارها أحد ... وينبت غيرها وينمو ويثمر ثم يذوى ويموت ، وهكذا دواليك ... ليس الهدف فى كل هذا هو النفع والانتفاع ... ولكنه عملية النمو والانتاج والموت والاستمرار فى الجيل التالى .. أى أن قوة الحياة وتحقيقها فى هذه العملية المتوالية الدائمة هو المقصود فى ذاته .. أما هدف النفع والانتفاع ففكرة آدمية لا تعرفها « الطبيعة » ...

قلت :

ـ ما أشقانا لو أن هذا صحيح !.. أيمكن أن نتصور

أن حياة الأفراد والأمم .. لا نفع فيها ولا هدف، انما هي ثمار تنضج وتسقط في مجـاهل كمجاهل أفريقا السوداء ؟ ! حقا .. قد يقول قائل : «أين ذهبت الحضارة الفرعونية ؟ ثم الحضـارة الهندية .. ثم الاغريقيـة والرومانية ؟.. أليست ثمارا نضجت وسقطت ؟ .. » نعم .. ولكنها لم تذهب هباء .. ما من شيء يذهب هباء في هـذا الكون !. لأن هذا الكون متصـل بعضه ببعض كالبنيان .. كل ذرة فيه تشد ذرة ... هنـالك لحظات نرى فيها حقا أن وجودنا ضئيل .. وأن جهودنا تافهة ، وأن آثارنا زائلة ، وأننا نعمل ونخلق ونتتـج ليبتلع غدا كل هـذا أسود فاغر فاه .. طالما ابتلع من قبلنا حيوات وثمرات ! .. لكن ، هل معدة هذا الغـد المخيف استطاعت يوما أن تهضم كل ما ابتلع ؟ ! ..

قالت العصا :

ـ فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمسه ... يكفى أن دمه الجديد انما يجرى بثمرات ذلك الأمس المهضوم !

سوق عكاظ هذا العصر

قالت العصا :

ـ يظهر أن الطريقة التى يتوسل بها الأدب والفن والفكر للوصول الى الناس قلما تتغير .. لأن الناس قلما يتغيرون،فشعراء الجاهلية كانوا يعرضون روائع فنهم من «المعلقات» فى سوق عكاظ .. حيث الناس مجتمعون لأغراض شتى .. منها التجارة والسياسة ومجاذبة الأحاديث ومبادلة الأخبار .. فى مثل هذا المكان الذى يحتشد فيه الناس سعيا وراء مطالب هى أبعد الأشياء عن الفن والأدب والشعر ، لا يجد الأدباء والشعراء والفنانون وسيلة للدنو من الناس أنجع من أن يعرضوا بضاعتهم الذهنية بين ما يعرض من بضاعة مادية .. فى هذا العصر الحديث لا بد أن يكون هنالك شيء يماثل سوق عكاظ ، تجتمع فيه الأذواق ، والحاجات والمطالب

قلت :

ـ سوق عكاظ العصر الحديث هى الصحافة .. فيهـــا نجد أيضا السياسة والتجارة والأحاديث والأخبار .. أى كل ما يشغل النـــاس فى حياتهم العادية .. وكل ما يحفلون به وما يحتشدون له .. لذلك نرى الفـن والشعر أو الفكر اذا أراد أن يبلغ رسالته الى النـاس فى جموعهم ، فانه يلتمسهم فى هذه السوق ... وان كان مطمعه الأسمى أن تكون له ســـوقه الخاصة التى لا تعرض فيها غير بضاعته وحدها .. ولكن هذا المطمع قلما يتحقق بنجاح .. لأن الناس هم دائما الناس .. لا يكثرون الا فى السوق العامة التى يصفون من يغشاها بقولهم : « من لا يشتر يتفرج ! »

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الانسانية لا تتغير ولكن الذى يتغير فيها هو القوالب والأثواب ...

سر التاريخ

قالت العصا :

ـ أحقا يستطيع التاريخ أن يعى كل شىء ؟. ما أكثر الأشياء التى يصنعها الناس كل يوم وهم يهتفون : «فليذكر التاريخ !.. » وما أكثر الرجال الذين يمضون كل يوم والناس يشيعونهم قائلين : « فى ذمة التاريخ ! » انى أعجب لهذا التاريخ وأدهش لقوة ذاكرته !..

قلت :

ـ وهل للتاريخ مهمة أخرى ؟ ! ان وظيفته الوحيدة هى أن يتذكر ... وانى أتصوره موظفا عموميا جالسا فى مقعده الكبير يدخن ويسترجع صور الحوادث والأشخاص ..وهو ـ شأن كل موظف مرهق بالعمل ـ قد عاثت الفوضى فى ملفاته وذكرياته .. فهو قد ينسى أحيانا الشخص الخطير ، أو الذى ظن أهله وأصحابه أنه سيقيم فى رأس التاريخ متربعا على الوسائد ، ليذكر

شخصا كان في عشيرته غير ذى حول ولا طول .. ان التاريخ له منطقه الذى يختلف أحيانا كثيرة عن منطق الناس .. ولكنه لا يرى ذلك .. فهو يؤكد أنه لايمتاز بشيء على الفرد العادى .. فهو يشكو كثيرا هو الآخر من ضعف ذاكرته ... ويعترف دائما بأن ذهنه معرض للخلط .. ويعتقد تماما أنه فى أحكامه انما يعبر عن طبائع الناس التى لا تتغير على مدى الأزمان .. بل انه أحيانا يتواضع أو يتخابث ويدعى الصمم ويقول :
« لا أستطيع أن أسمع الا أكثركم ضجيجا !.. »

قالت العصا :

ـ ومع ذلك فقد ردد كلمات الصامتين .. ما من أحد يعرف سر التاريخ ، حتى ولا التاريخ نفسه ..انهيتذكر كل ما يريد وقتما يريد وهو مضطجع يدخن الأعوام ، دون أن يتكلف التفكير أو التدبير ...

امتياز الذهن

قالت العصا :

ـ من الواضح أن مصر بدأت تظهر في الميـــادين الدوليةبمظهر التفوق والامتياز فى الرياضة والالعاب.. فهى الضاربة للرقم القياسى فى العالم كله لعبور المانش وحمل الأثقال والاسكواش راكيت الخ .. ولكنها فى ميادين العلم والفن لم تزل ضعيفة الأثر .. أو فىحكم المتأخرة المتخلفة .. فما هو السبب ؟..

قلت :

ـ السبب هو أن الممتاز فى الرياضة أو اللعب لايمثل الا نفسه .. يكفى أن تأتى بشخص حسن الاستعداد ، قوى البنية وتحبسه وتدربه وتمرنه .. وتلقى به فى الميدان فاذا صادفه الحظ المواتى مع مرانه ومهارته وقوته فانه يفوز علىالآخرين .. لأن جسم الانسان واحد فى

مصر وغير مصر من أمم الأرض .. ولكن الثقافةوالعلم والفن شأنها شأن آخر .. فالممتاز فيها لا يمثل نفسه أو جسمه فقط بل هو يمثل القيمة العلمية أو الفنية للأمة كلها .. فهو خلاصة التاريخ الثقافى لبلده الذى قد تمتد جذوره الى مئات السنين .. وليس من السهل تدريب عالم أو فنان بالسرعة أو البساطة التى يدرب بها لاعب أو رياضى .. لأن وراء العالم والفنان تراثا ثقيلا من التحولات والتطورات العلمية أو الفنية التى مرت بها حياة العلم والفن فى أمته .. فاذا اخترع أو انتج عالم أو فنان اختراعا أو انتاجا عالميا ممتازا ، فليس معنى هذا أنه هو الممتاز فى علمه أو فنه فقط .. بل معنى هذا أن العلم أو الفن كله فى بلده قد نضج الى الحد الذى يسمح بظهوره فى المجال الدولى ..

قالت العصا :

ـ حقا .. وهذا هو الذى يجعل الأمم ذات التاريخ العظيم فى العلم والفن هى وحدها التى تخرج حتى الآن العلماء والفنانين العظام !..

المعلم والحاوى !

قالت العصا :

ـ هنالك ظاهرة تسترعى التأمل والتعجب :

سر فى أى حى شئت .. وجس خـــلال أى ريف أردت .. وابحث فى سجلات أى مصرف عرفت. فلن تجد عمارة أو عزبة أو ثروة يمتلكها رجل علم الناس أو أضاء فكرهم أو ارتفع بادراكهم .. ولكنك ستجد العمارة والعزبة والثروة لمن استغفل الناس واستعبدهم واستغلهم وأضحكهم وهرج لهم وطبل ورقص ودجـل وتملق الغرائز وهبط بالمدارك ..

قلت :

ـ وما العجب فى ذلك ؟.. فلنسر فى أى حى شئنا ولنراقب أى جماعة من الصبيان معهم قروش أو ملاليم .. ولننظر الى من يعطونها ؟. ألى الحاوى والأراجوز

والقراد وبائع حب العزيز ؟ أم الى فقيه الكتـاب ومعلم المدرسة ؟ !

هكذا الشـعوب أيضا ، خصوصا فى مراحلهـا الأولى: تعطى كل ما فى يدها لمن يتملق غرائزها الأولية ويرضى أذواقها البدائية .. ويسير على هوى عقلهـا الفارغ ولا يجهـد فكرها التافه .. فاذا شبت وارتقت كان شأنها شأن الصبى الذى كبر واتسعت مداركه .. فهو لا ينسى أن يحتفظ بقسط من قروشه للكتاب الجيد، والهدف النافع ... لذلك كلمـا ارتقت الشعوب زاد تقديرها للذهن المضيء والعمل الرفيع

قالت العصا :

ـ حقا .. لا يستطيع المعلم أن ينافس الأراجوز فى الحصول على قروش الطفل ، ولكن هناك ولى أمره الذى يضمن حق المعلم .. أما الشعوب البدائية فمن يحتفظ فيها بحقوق المهذبين وأقدار الموجهين ! !

مصنع الشر

قالت العصا :

ـ هل الشر يولد فى الانسان .. أو أن طبيعة الانسان مفطورة على الخير .. وان المجتمع هو الذى يغير هذه الطبيعة ويوجه هذه الفطرة ؟

قلت :

ـ أكثر اعتقادى أن الانسان فطر على الخير .. وان المجتمع له أقوى الأثر فى تحويل هذه الفطرة .. وأضرب لذلك مثلا صغيرا له دلالة كبيرة .. روى لى طفل هذه الحادثة : أنه بينما كان يلعب على شاطىء البحر عثر بمنديل فيه عشرة قروش .. فأوحت اليه فطرته السليمة وتربيته القويمة أن يمضى الى رجل البوليس المنوط به حراسة الشاطىء فيسلم اليه ما وجد .. وتناول رجل البوليس المنديل والنقود من الطفل .. وبدلا من

أن يشكره على أمانته أو يهش فى وجهه مشجعا تجهم له وحدجه بنظرة ارتياب واتهام وصاح فيه : « ألم يكن فى المنديل أكثر من هـــذا المبلغ يا ولد ؟.. » فأجاب الطفل خجلا مصدوما مجروحا فى عزته : « لا » ثم مضى واذا به يقابل طفلا آخر يبكى باحثا عن المنديل الضائع، فأخبره أنه وجده وسلمه الى رجل البوليس ومضى به اليه ، فما ان رأى رجل البوليس الطفل الباكى المطالب، حتى نظر الى الطفل الأول نظرة سخط وغيظ وانتهره بقوله : « سرعان ما أخبرته أيها الكلب ! » ..

مثل هذه القصة ترينا الطريق الذى قد يتجه اليـــه الطفل الأمين فى مستقبل حياته .. انه ســـيؤمن بأن الأمانة خرافة ، وأن الحكومة خصم لا معين ..

قالت العصا :

ـ مثل هذا المجتمع حقــا هو الذى يصـــنع بيده من العجينة النقية اللصوص والخونة والمجرمين !..

ثمن الدم ..

قالت العصا :

ـ يظهر أن هنالك علاقة وثيقة بين الحضارة والجيش ، أى بين الحضارة والدفاع عنها .. فقد سمعنا تشرشل يخطب كثيرا فى الحرب الماضـــية يستحث جيش بلاده قائلا : « اننا ندافع عن حضارتنا » .. ومثـــل هذا كان يقوله قادة الجيش الفرنسى ، وما من شك فى أن هـذا كان يقال أيضا للجيش الألمانى الذى يعتقـــد دائما أن ألمانيا فوق الجميع ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. ان اســـتبسال الجنود رهين بقيمة ما يدافعون عنه .. ان دماء الأحرار غالية ، وعنـــدما تنهض أمة ذات حضارة لتدفع بأبنائها الى حيث يبذلون دماءهم فلا بد أن تشعرهم بأن الهدف يستحق الثمن ..

وهل هناك هدف أسمى من المحافظة على حضارة بلدهم المهددة ، هذه الحضارة التى بذل فيها مواطنوهم المهج والأرواح والعقول فى سبيل انشائها ، مجدا حيا قائما يفاخر به المنتسب اليه !.. ان الجندى الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الروسى أو الأمريكى يذهب الى الميدان وهو مطمئن الى أن دمه يبذل ويسفك دفاعا عن بناء أمته الذى يعلم كم من العظماء شيدوه ، وضحوا فى سبيل تشييده ، وكم من مواطنيه يقاسون الشظف والحرمان خلف الخطوط ليشدوا أزره فى الميدان ويعاونوه .. ولكن الجندى المصرى مثلا يذهب الى الميدان ليسفك دمه دفاعا عمن ؟ عن طائفة من اللصوص والسماسرة والمرتشين الرابضين يجمعون المال من دمه خلف الخطوط ؟. أم دفاعا عن حضارة تسير فى بلده سير السلحفاة ؟. لأنه ما من أحد يفكر فى أمته بقدر ما يفكر فى شخصه !

قالت العصا :

ـ ومع ذلك رأينا الجندى المصرى يستبسل ويبذل دمه عن طيب خاطر ، لأنه كريم العنصر ، ولكن الويل كل الويل اذا مضينا ندفع به الى الموت بغير هدف عظيم وظهر سليم ؟ !..

فرحة الجديد

قالت العصا :

ـ الطفل يفرح بالجديد لأنه جديد .. يهزه اليه الانفعال الوقتى بلمعة الجدة وبهزة المفاجأة .. جرب أن تعطى طفلا لعبة جديدة ولا تدعها فى يده لحظة حتى تبادره بلعبة أخرى جديدة ، عندئذ تجده قد ألقى من يده الأولى قبل أن يعرف ما بها أو يدرك كنهها ، ليقبل على الثانية فاذا فاجأته بلعبة ثالثة رمى الثانية والتفت الى الأخيرة .. وهلم جرا ..

قلت :

ـ هكذا الشعوب أيضا فى طفولتها .. والمجتمع فى طفولته .. يفرح للحدث الجديد ، والخبر الجديد ، والصحيفة الجديدة والحكومة الجديدة ، وكل شىء جديد .. انتفع به أو لم ينتفع .. المهم عنده هو التغيير .. هو

أن ينفعل وتثار عاطفته بالمفاجأة من أى نوع كانت ..
وخطورة هذه العادة فى مجتمع ما هى أنها تجعله سريع التقلب ، سطحى النظرة، قليل الصبر ، عاجزا عن ارساء قواعد متينة لحياته ومقومات نضـجه .. فهو يغير ويبدل فى الأشياء قبل أن يفهمها أو يفحصها أو يمحصها ..
وهو بهذا الخلق الطفـولى قد يؤثر فى قادته ومفكريه فيرغمهم على ارضاء نزعاته ونزواته .. فيقضى بذلك على كل أمل فى امكان تطوره الى مرحلة الادراك الصحيح

قالت العصا :

ـ ليس الذنب ذنب الطفل ، وألاعيب الطفولة ..
ولكن الذنب ذنب المربى الذى يشجع فى الطفل هــذه النزعة بالاكثار من تقديم الجديد ، فيعوق نموه من عهد اللعب والعبث الى عهد الفهم والبحث ..

الدواء العجيب . !

قالت العصا :

ـ فى الدهر ساعة يرفرف فيها السلام .. وتكتمل الصحة .. ويصفو المزاج .. لو عرفنا اسمها أو صفتها، لحصل لنا من ذلك نفع كثير ...

قلت :

ـ أما الاسم والوصف ، فليسا من الصعوبة بمكان .. هذه الساعة من الدهر التى يرفرف فيها السلام على الأرض تسمى فى عرف رجال السياسة توازن القوى ! فكلما حدث هذا التوازن فى القوى بين الدول ظفرت الدنيا بفترة من الاستقرار والهدوء والسلام .. فاذا اختل الميزان قليلا ، ورجحت منه كفة ، ثقلت بالقوة والمنعة والعدد والعلم والاختراع والحضارة فسرعان ما تبرق عيون الأطماع ، وترعد أصوات الطغيان ،

ويكفهر الجو بغيوم الحروب التى لا تلبث أن تنقض على الأرض .. وهذه الساعة من الدهر التى تكتمل فيها الصحة ويصفو المزاج تسمى فى عرف الأطباء : توازن القوى أيضا .. فكلما تم هذا التوازن بين ما فى الجسم من عناصر وجراثيم استمتع الانسان بفترة من الصحة ، فاذا اختل هذا التوازن بتغلب عنصر من العناصر على غيره ، أو ازدادت كميته عما ينبغى أو قلت عما ينبغى ، أو تكاثرت الجراثيم ، أو ندرت ، فسرعان ما تذهب الصحة ويأتى المرض .. فتوازن القوى فى جسم الانسان ... أو جسم الدولة .. أو فى جسم الدنيا المكون من دول هو سر الصحة والسلام .. وليست الصعوبة فى معرفة ذلك السر ..فهو معروف .. ولكن الصعوبة الكبرى فى كيفية الاحتفاظ بهذا التوازن طويلا ! أما فى جسم الانسان فطريقة الاحتفاظ بالتوازن ربما كانت فى « الاعتدال » .. وأما فى الجسم الدولى فربما كانت فى « اعتدال » الساسة أيضا .. ولكن هذا الدواء المسمى « الاعتدال » أين يصنع أو يطلب ؟..

قالت العصا :

ـ الاعتدال ... ما من صيدلية آدمية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب فى كل الأحوال !..

دورة الزمان

قالت العصا :

ـ كلما تذكرنا الحضارات القديمة التى ازدهرت فى مصر واليونان والهند منذ آلاف السنين ، وما خلفتـــه اليوم فى هذه البلاد بالذات من شعوب فقيرة تستجدى غيرها ثمرات الحضارة ، تملكنا العجب ، ولم ندر لهذا المصير المؤلم من سبب !..

قلت :

ـ السبب واضح .. حسبنا أن ننظر الى ثروة رجل قضى عمره يكنز المال ، حتى قنطر منه ما يضاهى التلال. هذه الثروة منذ وجدت ، وناموس الوجود يرتب لهـا طريقة فنائها . ان التــلال تختفى بالتضاريس الأرضية والزلازل الفجـــائية ، وأموال البخيل تختفى باسراف خلفه السفيه ، والثمرة الناضجة ان لم تجد من يقتطفها، تنخر فيها الدودة التى تسقطها ، والصـــحة عندما تبلغ

أوجها تولد من توهجها العلة . والحضارة عندما تتألق أشعتها تبدأ فى التحلل . ولا يبقى منها بعد تمام التحلل سوى كيان منطفىء ، لا يلبث أن يتحول الى رماد ، من شعوب مفككة رخوة شـــاحبة ، ويدور الزمان دورته فينفخ قليلا فى هذا الرماد فاذا جذوة مختفية كحبـــة الخردل تدب فيها الروح ، وتأخذ فى التألق شيئا فشيئا حتى تصبح مرة أخرى حضارة حية ذات أشـــعة ... وهكذا دواليك ...

قالت العصا :

ـ ولكن العجيب فى الحضارات أنها لا تختفى بل تنتقل . ان حضارة مصر والهند واليـــونان قد ورثها غير أهلهـا ، وانتقلت من مهدها الى أوربا مرتدية ثيـابا جديدة !

قلت :

ـ ومن قال ان ثروة الغنى تختفي ؟. انها تتبـــــدد وتنتقل الى أيد كثيرة مختلفة ... وقد تعـود يوما مرة أخرى الى أحد من أعقابه وسلالته بجهـــد آخر وكد جديد !..

قالت العصا :

ـ حقا : ما من أحد يملك شيئا على هذه الأرض الا الى أجل معلوم !..

مقبرة النجاح

قالت العصا :

ـ مقبرة النجاح الغرور ... هذا لا شـــك فيه .. ولنا على ذلك أدلة وشواهد من التاريخ والواقع .وليس هنا موضع النظر .. انما المحير هو كيف ينزلق الى هذه المقبرة رجل فى اكتمال عقله وقوته أو دولة فى اكتمال قوتها وحنكتها ؟ !

قلت :

ـ ان الغرور بالنسبة الى العظيم فى الأفراد والدول، ليس فى كل الأحوال مسألة خلقية .. بل هو أقرب الى أن يكون مسألة حسابية .. الخطأ فيها يؤدى بالنجاح الى المقبرة ، مشيعا صاحبه بهذا الوصف !.. فعنـــدما يقول بعضهم ان « هتلر » مثلا أصابه الغرور فأقدم عـلى منازلة الدول الكبرى مجتمعة بجيشه وحده لا يقصـد بذلك مطلقا ان مثل « هتلر » فى مثـل أمته المملـوءة

بالخبراء المحنكين ، والدهاة الأساطين ، يمكن أن يلعب برأسه نوع الغرور الذى نطلقه على السخفاء والمتهورين .. لا .. وانما الغرور هنا هو حساب مبنى على تقدير غير دقيق لقوة النفس منسوبة الى قوة الغير ، وقد تكون ظروف مفاجئة هى التى أخلت بهذا التقدير ، ولكن هذا لا يؤثر فى الوصـــــف .. لأن الوصف انما يلحق بالنتيجة لا بالفعل .. كما أن وصف الميت لا يلحق الا بمن دخل المقبرة بالفعل .. ذلك أن التقدير الذى يؤدى الى النجاح ، ولو بالمصادفة الحسنة ، قد يوصف صاحبه بالجرأة ولكنه لن يوصف بالغرور .. ان الحســاب اذا صدق قال الناس فى صاحبه انه أحكم ، واذا اختـــــل قالوا فيه انه اغتر ..

قالت العصا :

ـ حقا ... ما لحقت هذه الكلمة قط رجلا وصل ! انما الغرور هو الكفن ، الذى تغلف به قفـــزة الجرىء اذا سقط !..

منشآت العمال

قالت العصا :

ـ هل ارتفاع الأجور يكفى وحده لرفع مستوى المعيشة بين طبقة العمال ؟

قلت :

ـ لا أظن . والدليل أن أجر العامل اليوم قد ارتفع فى مصر عما كان عليه من قبل ، ولكن مستوى معيشته لم يرتفع بهذه النسبة، لأن عددا كبيرا من العمال لاينفق أجره فيما يرفع مستواه الاجتماعى ، ولكن فيما يرضى نزواته العارضة . روى لى أحدهم أنه شاهد فى أحد المقاهى عاملا ينفق فى جلسة واحدة ما يقرب من نصف الجنيه بين شراب ودخان . فلما استعلم عن أمره من خادم المقهى أخبره أن هذا متوسط ما ينفقه هذا العامل فى هذا المحل كل يوم ، ثم علق على ذلك قائلا : «ولعله لا يطعم أسرته بأكثر من عشرة قروش ! » . وهذا فى

الغالب هو الحاصل . لم تزل أسرة العـــامل وسكنها وطعامها على الحال القديم بينما زيادة الأجر تذهب فى الملاهى والمكيفات. ومهما يرتفع الأجر ، فلن يغير ذلك شيئا من الأمر ، والعدد القليل من العمال الذى ينفـق قرشه فيما ينبغى أن ينفق فيه لا يمكن أن يظهر أثره بين الغالبية الساحقة . والحل لهذه المشكلة هو أن تنشأ مصلحة أو وزارة باسم« منشآت العمال » تقوم باستقطاع جزء من أجر كل عامل ، وتجعل حصيلته فى صـــندوق خاص ، تغذيه الحكومة وأصـــحاب العمل بمبلغ كاف ويوجه هذا المال الى انشاء المشروعات التى ترفع مستوى العمال مباشرة ، كبناء المســـاكن الصحية ، والحوانيت التعاونية والأحياء والنوادى العمالية الخ ...

قالت العصا :

ـ حقا .. هذا ما يجب أن يحدث فاننا اذا أعطينـــا طفلا مبلغا كبيرا من المـــال ، فان أول ما يصنعه هو أن يشترى به كمية كبيرة من الحلوى ، وآخر ما يفكر فيه هو شراء ثوب نافع .. فلا بد من تدخلنا لنوجهه الى الطريق المستقيم، ونقول له : هذا فقط للحلوى ،والباقى لمطالبك الضرورية النافعة ، التى تجعل منك مواطنـــا محترما ...

أحلام العظماء

قالت العصا :

ـ هذا الهرم الأكبر .. الشامخ الثابت في الرمال ، تمر به القرون والحقب والأجيال ، كما تمر النسمات ، يقول للزمن : « نحن صـــنوان » .. ويقول له الزمن متملقا : « بل أنت لي رداء منظور من حجر » !.. قبل أن يقام في الحقيقة على صورته هذه ، ألم يقم في رأس رجل ؟ !

قلت :

ـ ما من شك في أنه قام في رأس رجل ، حلما من الأحلام قبل أن يصير حقيقة من الحقائق . فليكن هذا الرجل ملكا أو فنانا أو مهندسا ، فانه قد تخيل فخلق ، وخلق ففرض خليقته على الزمان ! .. ساعة حلم في رأس رجل قد تصبح هي الأبد !.. يا لعجـــائب العبقرية أحيانا !.. هذا الوهم الشفاف الذي لا جســم

له ، هذا الحلم الهفاف الذى لا كيان له ، هذا الخيـــال العابر الذى يأنف المكان أن يجد له موضـــعا ، ويترفع الزمان عن أن يبقى له فى حسابه لحظـــة ، يستطيع أن ينقلب جبلا شاهقا راسخ الموضع دائم اللحظات ، ومثـل هذا كثير فى عالم الروائع الباقية والأفكار الخالدة ..

رجل يتوهم أو يتخيل أو يحلم ، ثم يستيقظ فى الصباح مؤمنا بوهمه أو خياله ، أو حلمه ، فيأبى الا أن يقيمـه على قدمين، فما يكاد يفعل حتى ينطلق هذا الوهم أو الحلم يسعى بين الناس حقيقة ، يعيش فيها الناس ويألفونها ، كما يألفون الظواهر الطبيعية، من جبال وبحيرات وبحار ومحيطات . وتتشرب نفوسهم بها ، فاذا هى عندهم شىء طبيعى كالماء والهواء ، يتعذر عليهم الحرمان من وجودها، ويصعب عليهم تصور وجودهم بدونها ، ويخيل اليهم أنها من المقومات الضرورية لحياتهم ولا يحبـــون أبدا أن يتذكروا أنها حلم مر ذات ليلة برأس رجل ، كغيره من آلاف الأحلام التى تمـــر دائما برؤوس الآلاف من الرجال . . .

قالت العصا :

ـ نعم . . الا رأس الرجل العظيم . . الرجل العظيم ذلك الذى يجعل من أحلامه حقائق تعيشها الناس !. .

مهر الفن

قالت العصا :

ـ ما حقيقة العلاقة بين المال والفـــن وبماذا نفسر تصرف فنان عظيم مثل «بيتهوفن» معروف بالخلق الكريم هذا التصرف الغريب ازاء تعهداته، فقد قيل انه اتفق مع دار للنشر الموسيقى على تأليف « السيمفونية التاسعة » لقاء مبلغ من المال ، فلما مضى فى تأليفها ورأى اتســاع نطاقها استصغر المبلغ المتفق عليه وتعاقد مع دار أخـرى بمبلغ أكبر ضاربا بعقده الأول عرض الحائط . ثم بماذا نفسر تصرف شاعر عظيم مثل « المتنبى » الذى انتقل من مدح « سيف الدولة » الى مدح « كافور » تبعا لما طمع فيه من جائزة ؟ ! أكان المال هو الهـــدف الأول عند هذين الفنانين العظيمين ؟ !

قلت :

ـ لا أعتقد مطلقا أن المال كان هدفهما الأول .. ولا

يمكن أن أعتقد لحظة أن المـــال وحده يمكن أن يكون الهدف الأول لفنان حق .. ان « الكرامة » الفنية هى سر تصرف بيتهوفن والمتنبى .. احترام الفنان لعمله هو الذى جعل بيتهوفن يقدر جهده أعلى تقدير ، وجعـل المتنبى يرى شعره وفنه خليقين بأسمى جوائز الملوك . كرامة الفن فى نظر الفنان تدفعه الى أن يصر على طلب أبهظ الأجور .. انه نوع من الاعتـــــداد بالنفس والاعتزاز بالفن .. لا دخل له بحب المال فى ذاته .. أما الفنان الذى يسعى الى المال فى ذاته .. فانه يسلك طريقا آخر .. هو الطريق المعروف لجمع المال .. وهو البحث عما يرضى غرائز الجماهير .. ووضع عمله فى قالب المشروع التجارى .. واستغلاله للجهود الأخرى فى صيغة من الصيغ المألوفة عنـــد الشركات وأرباب الأعمال ..

قالت العصا :

ـ نعم .. فرق بين من يجعـل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالى وبين من يجعل عمله كالعـــاهر تأتى له بالمال من أى طريق !..

استقلال الشخصية

قالت العصا :

ـ من المشكلات التى تصادف الآباء والمربين فى عصرنا الحاضر مشكلة تكوين « الشخصية » فى النشء .. فقد انتشرت بعض الآراء التى تقول بترك الصغار يفعلون ما يشاءون ، دون ضابط أو رابط من أوامر ونواه ، حتى يشبوا وقد تشربوا بروح الحرية ،واعتادوا تحمل « المسئولية » .. فهل هذا هو الطريق المستقيم فى تربية النشء تربية استقلالية ؟.

قلت :

ـ ما من شك فى أن « الحرية » وتحمل «المسئولية» هما الدعامتان اللتان تقوم عليهما « الشخصية » .. وان حرمان النشء من حريته واستقلاله فيه الى حد كبير تحطيم لشخصيته .. غير أن بعض الآباء والمربين يرون

أن هذه الحرية وهذا الاستقلال قد انقلبا عند بعض النشء الى فوضى وعبث و «قلة أدب» ويفضلون العودة بالصغار الى النظام والصرامة والطاعة العمياء ... فى الحق أن الخلاف راجع الى سوء فهم كلمات « الحرية » و « الاستقلال » و « المسئولية » .. ذلك أن المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل ، بل حرية التفكير .. فليست الشخصية المستقلة البارزة القوية هى التى تفعل ما تريد ... لأن فعل الانسان لما يريد هو الفوضى ، ولكن الشخصية المستقلة هى التى تفكر دائما كما تريد لا كما يراد لها .. اليوم الذى نعلم فيه النشء كيف يقرأ ويدرس لا ليحشو رأسه، بل ليفكر برأسه، هو اليوم الذى نستطيع فيه أن نقول اننا غرسنا فى روحه استقلال الشخصية

قالت العصا :

ـ حقا .. ان استقلال الشخصية ليس فى حرية العمل بل فى حرية التفكير ...

دواء الغلاء

قالت العصا :

ـ لا حديث للناس اليوم الا عن الغلاء .. هذا الداء المستعصى الذى تعبت الرؤوس وكلت الهمم فى البحث عن علاجه ... ألا ترى له من دواء ؟ !

قلت :

ـ فلنبحث أولا عن أصل هـذا المرض .. بعيدا عن نظريات العلماء والخبراء .. انه فى حقيقـــة الأمر لا يختلف كثيرا عن أى مرض من تلك الأمراض التى قيل فيها قديما : « البطنة أصل الداء والحمية رأس الدواء» .. فمها يكن من قوة الأســباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر فى السوق ويرفع الأسعار فان السبب الأكبر هو فى أيدينا نحن ، بل فى بطوننا .. فمواد الطعام من لحم وخبز وفاكهة وأرز لن ينخفض سعرها كثيرا فى أى

يوم ما دمنا نريد أن نضعها على موائدنا فى كل يوم ..
ان شراهة المنتج والبائع انما تنبـع من شراهة المشترى والمستهلك ... واليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل ...
قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة النطاق ، واستخدموا فيها الصـحف والاذاعة وكافة طرق النشر لتحـديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل قادر وكل بيت ..
محذرين من أكل الفاكهة ، أكثر من مرتين فى الاسبوع، واللحم أكثر من ثلاث مرات ، والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث . واحملوا حملة شعواء على الاسراف والتبذير والترف فى المأكل والملبس، وروجوا للقناعة والبساطة ، ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت انجلترا منذ عامين فنجحت لا فى مقاومة الغلاء فقط بل فى القضاء على أزمتها المالية ... افعلوا ذلك بكل وسيلة وأنتم ترون العجب:
ان الكروش ستختفى وينقص الترهل ومرض السكر وضغط الدم ، وتنقص الأسعار وتعمر الجيوب ويطعـم الفقير والغنى ..

قالت العصا :

ـ حقا .. لا فائدة من علاج الغلاء قبل أن نعـالج بطوننا وترفنـا .. لا شيء يقتـل البائع الطـامع غير المشترى القانع ...

مرآة الفكر

قالت العصا :

ـ من الناس من يقرأ ببطء ويجهد في القراءة كما يجهد الكاتب في الكتابة ... ومنهم من يمر بعينيه فوق الورق كما تمر الطائرة فوق بقعة الأرض ... فأي الناس أكثر انتفاعا بما يقرأ : البطيء أم السريع ؟

قلت :

ـ ليست العبرة بالبطء والسرعة ... ولكن العبرة بالحاصل من القراءة ... وهذا الحاصل يضخم أو يضؤل بحسب قيمة القارىء نفسه وما اكتنز من ثقافة أو تجربة أو خبرة أو نضج في شئون الذهن والحياة .. فالكتاب الواحد قد يتفاوت معناه بتفاوت قرائه .. كما أن المرآة الواحدة قد تختلف صورها باختلاف الناظرين فيها .. فالقارىء في حقيقة الأمر انما يقرأ بتجاربه

لا بعينيه .. وهو يغوص فى أعماق الكتـــاب على قدر ما تسمح به قوة عضلاته الفكرية وطول خبرته الانسانية ... لهذا شتان بين ما يحصله غلام من قراءة كتاب مثل « كليلة ودمنة » وبين ما يحصله رجل .. كلاهما قد حصل شيئا من غير شك .. ولكن كليهما قد فهم منه بقدر فهمه للحياة .. بل ان القارىء العميق يستطيع أن يعمق أحيانا ما يبدو بسيطا من المعانى لمن يمر بها عبرا ، ولا يخطف بصره منها غير الزبد المتطاير

قالت العصا :

ـ ربما كان الكتاب كالمرآة حقا .. هى تعكس صورة الوجه .. وهو يعكس صورة الفكر ..



المهن الراقية

قالت العصا :

ـ من الطريف المعجب أن نرى الطبيب والمهندس والضابط والتاجر ومن فى مستواهم العلمى أو الثقافى فى بلاد متحضرة كانجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وايطاليا يحسنون الانشاء ، اذا كتبوا بلغة بلادهم ، والالقاء بها اذا خطبوا .. فى حين أن هذه الطبقة بالذات من المتعلمين فى بلادنا ندر فيهم من يحسن التعبير باللغة العربية السليمة اذا كتب أو خطب ..

قلت :

ـ هذا حقا ما يلاحظ مع الأسف الشديد فى بلادنا اليوم .. ولم يكن الحال كذلك فى الجيل السابق .. فقد كان المتعلمون على قلة عددهم أكثر احتفالا باللغة العربية وأشد عناية بامتلاك ناصيتها من أغلب أهل هذا

الجيل ... ويكفى أن نراجع أساليب القضاة فى الأحكام لنجد فى بعضها قطعا قد تعد فى الأدب .. ولعل السبب فى ذلك هو أن الجيل الماضى كان أكثر اعتمادا على نفسه وعلى مطالعاته الخاصة فى تكوين ثقافته وأداة تعبيره .. وكانت تلك المطالعات أهم وأدسم لأنها لم تقتصر على الصحف والمجلات .. وهذا هو الواقع فى البلاد الأخرى المتحضرة ، فمن النادر هناك أن تجد متعلما من أهل هذه المهن الراقية يهمل تكوين فكره هذا الاهمال الملحوظ فى بلادنا ...

قالت العصا :

ـ لقد فهموا هناك أن المهن الراقية بغير رقى التكوين انما تهبط فى الحال الى مستوى المهن اليدوية ...

العمل الكامل

قالت العصا :

ـ هل من واجب الفنان أن ينتج فنه ولا يشغل بشيء غير انتاجه ، أو يتولى بنفسه الدعوة له والخصومة فيه ؟

قلت :

ـ لقد عرف تاريخ الفن هذا وذاك .. عرف شكسبير الذى كان ينتج روائعه الخالدة فى صمت .. دون أن يترك ورقة يفسر بها عمله أو يرد فيها على نقـاده .. وعرف بيتهوفن الذى كان ينتج آثاره الباقية فى عزلة .. مكتفيا بتلك الكلمة التى قالها يوما فى نقاده ومهاجميه: «انى كالجواد الراكض لا يقفه لذع ما تجمع على ذيله من ذباب !. » . كما عرف هوجو الذى كان يخـرج المسرحية وخلفها جيش من أنصاره يلتحم فى معـركة ، لا كلامية فقط بل فعلية ، مع جيش من خصـومه ...

وعرف فاجنر الذى أنفق من الجهد فى الدعوة لموسيقاه والخصومة فيها والدفاع عنها مثل ما أنفق فى انتاجها ..

قالت العصا :

ـ هذا الفرق بين الطرازين من الفنانين راجع الى طبيعة الفنان أو الى طبيعة العمل الفنى !..

قلت :

ـ أعتقد أنه راجع الى طبيعة العمل الفنى .. فشكسبير وبيتهوفن كانا يهدفان الى كمال الفن فى ذاته .. كان كفاحهما موجها ضد النقص وضد قصورهما .. وهذا النوع من الكفاح الداخلى لا علاقة له بالناس .. أما هوجو وفاجنر فكانا يهدفان الى ترويج مذاهب جديدة فى الأدب التمثيلى والتأليف الموسيقى .. فكان لا بد لهما من كفاح خارجى عنيف ، ودعوة تشابه الدعوات السياسية تكفل للمذهب الظهور والثبات ..

قالت العصا :

ـ كل ضجة تخف بعد حين .. وكل مذهب بعد عصره ذاهب .. وكل جدل مع الريح زائل .. ولا يبقى فى كل زمان غير العمل الكامل ..

استعارة لا ردية

قالت العصا :

ـ أكثر اللغات الأوربية تطلق على المبـــــرز فى المسابقات الرياضية ونحوها كلمة « شامبيون » . . فيقول الناس هناك : « هذا شامبيون العالم فى السباحة أو القفز أو الملاكمة » الخ . . أما نحن فى لغتنـــا العربية فنترجم ذلك بكلمة « بطل » . . فنقول : « هـــذا بطل العالم فى التنس أو الجرى أو المصارعة » الخ . . وليس هناك شك فى أن هذه الترجمة غير صحيحة ولا دقيقة ولا مقبولة . . لأن وصف « البطل » فى اللغات الأوربية له كلمته وهى بعيدة كل البعد عن كلمة « شامبيون » التى تستعمل فى « المسابقات » . . فى حين تبقى كلمة « بطـــــل » بقيمتها لا تطلق الا فى أحوال البطولة بمعناها الحقيقى فى مجال الأخلاق والأعمال التاريخيـــة الكبرى . .

فهل عقمت اللغة العربية فلم تتسع ـ وهى الغنيـــة ـ لتشمل هذه الأوضاع الحديثة بما يناسبها من كلمـــات جديدة أو منحوتة ؟

قلت :

ـ حقا انه لعجيب أمر هذه اللغة العربية التى تجـد فيها للأسد وللسيف كلمات ومترادفات ، بينما يظـــل الكثير من أوضاع الحياة الحديثة عاريا من الوصـــف ، فيستعار له على عجل رداء غيره .. فاذا هو فضفاض ..

قالت العصا :

ـ كثير من الكلمات اليوم فضفاضة على مدلولاتها ، فكلمة البطل والأستاذ والعالم والأديب الخ .. كلها تطلق جزافا حتى فقدت كل قيمتها اللغوية .. أترى العلة فى الفقر الذى أدى الى استعارة الأردية ، أم فى الاهمال الذى شجع المستعير على أن يستعير ؟ !

غاية الطبيعة

قالت العصا :

ـ يتساءل الناس منذ أقدم العصور عن غاية «الطبيعة» وينتهون أحيانا الى أن غايتها هى المحافظة على الأنواع .. أى الاستمرار .. أى الخلود .. كما أن الفنـــان الخالق وهو ابن الطبيعة والمستلهم منها والخاضع لقوانينها انما يهدف هو الآخر من وراء خلقه الفنى الى الخلود .. لذلك قيل : ان العمل للخلود هو شيمة الفنان الجاد الملهم الرفيع ..

قلت :

ـ أظن أن فكرة « الخلود » بعيدة عن غاية الطبيعة ، كما انها بعيدة عن هدف الفنان الجاد .. لأن معنى الخلود متصل بمعنى الزمن .. و « الزمن » شعور انسانى بحت لا نخال « الطبيعة » تحسب حسابه أو تفكر فيه .. كما

يفعل الانسان المحدود المدة والمكان والفكر والعمر .. انما هى تحيا وتستمر وتتكرر وتعدل وتظهر فى صور مختلفة ومتشابهة، وتتطور وتتقهقر وتردد وتعيد وتبدىء وتقفز وتبتكر وتتمهل وتتراجع وتسرع وتتقدم .. كل ذلك بدافع واحد ، هو أن تحقق ذاتها .. وتحقيق الذات هذا كالدائرة المفرغة لا نهاية له ولا لتطوراته.. كذلك الفنان الحق لا يهمه كثيرا بقاء عمله بعد موته أو زواله .. فهو ليس بالثرى المغـــرور الذى يعنى طول حياته باقامة الضريح الذهبى العالى الذى يبقى ذكره فى الناس .. انما الفنان الحق يخلق هو الآخــــر بدافع تحقيق ذاته .. أى متابعة التطورات والتغـــيرات التى تحدثها ملكاته .. لذلك نرى كثيرا من عظماء الشعراء والفنانين فرغوا من انتاج الآثار المشهود لها بالخلود ومع ذلك يمضون فى انتاج الألوان المتباينة بلا انقطاع .. انهم اذن فى الحقيقة يلبون نداء تحقيق الذات فى حالاتها المختلفة وألوانها الخضراء والصفراء كما تفعل الطبيعة ، أكثر مما يشيدون الأضرحة المزوقة لخلود الذكر ...

قالت العصا :

ـ يظهر أن « الخلود » هو « نتيجة » لا « غاية » عند الطبيعة والفنان ...

العالم الافضل

قالت العصا :

ـ هل الانسان يسير حقا نحو عالم أفضل ؟.. أو أن فكرة الغد الأفضل هي السراب الضروري للانسان كي يعيش مواصلا السير في صحراء الحياة اللانهائية الآفاق ؟ !

قلت :

ـ ان كلمة « الأفضل » هي التي يجب أن نقف عندها طويلا ونقلبها بحثا وفحصا .. ما هو المقصود من كلمة « الأفضل » .. ؟ .. أهو التقدم المادي ؟. أهو الرقي الروحي ؟ . أهو الشعور بالسعادة الفردية ؟ ! أهو الاندماج في الهناءة الاجتماعية ؟. اذا كان المقصود كل هذا وأكثر منه فهل من الممكن أن يتم ذلك في الغد المأمول وحده .. أو في زمن واحد من الأزمان ؟. أو

بمرحلة واحدة من مراحل الانسان ؟.. لو تأملنا حياة فرد من الأفراد لوجدناها تسير من مرحلة الطفولة الى الشباب الى الرجولة الى الكهولة .. وهى فى سيرها تكتسب من غير شك تقدما وربحا وغنما فى ميادين التجربة والمعرفة والمال والمركز .. ولكنها تخسر أيضا فى عين الوقت ــ كلما تقدمت سنا ــ فى ميادين الصحة الجسمانية والنفسية والروحية .. هل يقاس صفاء النفس عند الطفل ، وايمان القلب عند الشاب بما فى نفس الرجل وقلب الكهل ؟ ! وهل تقاس سعادة الفطرة والفرحة بالحياة فى الطفولة والشباب بسعادة الرجولة والكهولة ؟.. هكذا الحال فى البشرية أيضا .. انها تتقدم فى نواح وتتأخر فى نواح .. وهى فى مراحل حضارتها تكسب فى أشياء وتخسر فى أشياء ..

قالت العصا :

ــ مادام الانسان يسير فى صحراء حياته بالأمل فلا بد من وجود سراب « العالم الأفضل » المطلق !..

كل شىء مطلق يعيش فى الخيال المطلق .. ولكن الحقيقة ان « العالم الأفضل » موزع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية والبشرية

خلود الفكر

قالت العصا :

ـ أيهما هو الذى أراد أن يخلد ذكره ويبقى أثره ويحافظ على كيانه وجثمانه وسره وعبقريته بتشييد هذا الهرم الأكبر ؟ أهو خوفو ؟ أم هو العلم الهندسى والابداع الفكرى ؟

قلت :

ـ لقد اعتاد قصار النظر من المؤرخين أن يزعموا أن الهرم الأكبر هو وليد نزوة لأحد الفراعنة .. وهذا صحيح لو صح أن بقاء الأنواع هو وليد نزوات وشهوات ومتع وقتية .. وغدا سيزعم هذا النفر من المؤرخين أن اكتشاف أسرار العلوم الذرية وليد حرب سخيفة بين دول متوترة الأعصاب .. كل هذا صحيح فى الظاهر ولكن المتعمق فى البحث يجد العكس هو

الأصح .. ويرى أن قانون بقـــاء النوع هو الدى يستخدم نزوة الانسان ومتعه ليحقق هدفه .. فهـــو السابق على النزوة ، الدافع اليها .. فالتقـــدم العلمى الهندسى الرائع فى العصر الفـــرعونى هو الذى أغرى خوفو .. والتقدم العلمي الذرى فى العصر الحاضر هو الذى يغرى الدول .. فالمعرفة البشرية سواء أكانت فى العلم أو الأدب أو الفن لها قانونها فى البقاء والاستمرار والتقدم .. وهى تعيش وتعمل وتنمو مستخدمة لهدفها الضعف الانسانى وقوته ، والخير والشر على السواء ..

قالت العصا :

ـ ان المتعة تذهب بعد لحظة . ولكن النسل يبقى .. والنزوة تزول ولكن الأثر العلمى أو الأدبى أو الفنى يعيش ... ماذا يهمنا اليوم من نزوة خوفو ونحن أمام معجزة هندسية فنية !. حقا .. انها المعـــرفة الانسانية هى التى أرادت أن تخلد نفســـها من خـــلال غرور الانسان ...

طابع الحضارة

قالت العصا :

ـ من الملاحظ أن الأمم الناشئة الآخذة بأسباب الحضارة تريد أول ما تريد أن يكون لها في ميدان الحضارة طابع خاص

قلت :

ـ شأن الصبي الذى يريد أول ما يريد أن تكون له بين أهل الدار شخصية بارزة .. فهو يتكلف في سبيل هذه الرغبة من المظاهر ما يظن أنه يحقق هذا الهدف .. الى أن يشب وينضج فيدرك أن الشخصية لا تكتسب بالمظاهر ولا بالرغبة ولا الارادة .. انما هى صفة تلحق الانسان بدون أن يسعى اليها ، عندما تنشط أعماله وتنمو ملكاته وتكثر تجاريبه وتحفر يد الحياة على جبينه خطوط النجاح والاخفاق والظفر والهزيمة والقوة

والضعف .. خطوطا كلما برزت على صفحات النفس برزت معها الشخصية واضحة جلية .. كذلك الحال في الأمم .. لا بد لها من شوط كبير في الحضارة التي تأخذ بأسبابها .. تجري في ميدانها وتكبو ، وتصيب وتخيب ، وتغنم وتغرم ، وتتمرس بكل ما يصادفها في الطريق من ظروف طيبة وخبيثة .. لتخرج من هذه الخبرة وقد دمغ جبينها بآثار المعركة .. فاذا الدنيا ترى على أديم وجهها ـ دون أن تشعر هي أو تأبه ـ طابعها الخاص

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الطابع الخاص في الفن والحضارة ، شيء لا يتم بالارادة .. بل لا بد له من النضج الطبيعي ..

الماضي طريق المستقبل

قالت العصا :

ـ جرت الألسنة بالقول ان الماضي في بلادنا له أثر واعتبار ، وأن فرط الاهتمام به هو الذي يسد علينا مسالك التفكير في المستقبل !.

قلت :

ـ هذا رأي بعيد عن الصواب .. فنحن أقل الأمم اهتماما بماضينا .. بل نحن لم نلتفت الى آثار الماضي الا بعد أن كشف لنا عن أستاره الأجانب .. ولقد تسأل المثقف منا عن أفكار وأخبار عظيم من عظمائنا مات ، لا أقول منذ مائة عام بل منذ ثلاثين عاما أو أربعين فقط ، فلا تظفر منه الا بالجهل وقلة الاكتراث .. في حين أنك لا تجد رجلا مهما ولا فكرة بارزة أو فترة حافلة في حياة الأمم المتحضرة الراقية الا وقد درست وبحثت

وأبرزت .. فما يكاد عظيم هناك يموت حتى يؤرخ له المؤرخون فلا تترك من أفكاره ولا من آثاره ناحية دون أن يكشف عنها الستار ويلقى عليها الضوء .. هـــذا الاهتمام الذي يربط حلقات الماضى فترة بفترة ورجلا برجل وفكرة بفكرة وجهدا بجهد، هو الذى يشق لهذه الأمم طريق المستقبل .. ذلك أن الخطأ الأكبر هو أن تظن أن المستقبل شيء منفصل عن الماضى .. انما الزمن حلقات متتابعة .. ولن نجد المستقبل ناميا الا من بذور الماضى .. واذا كنا نحن لاهين عن مستقبلنا فذلك لأننا لاهون أيضا عن ماضينا ..

قالت العصا :

ـ الأمم الناشئة مثل الطفـــل ، لا تهتم بماض ولا بمستقبل. .انما هى مثله تهتم بالحاضر وحده . .الحاضر هو الزمن الوحيد الذى يغرق فيه الأطفال . . .

روح الانصاف

قالت العصا :

ـ انه لمن أصعب الأمور فيما يبدو، أن يحكم الانسان حكما عادلا على تصرفات غيره !...

قلت :

ـ هذا صحيح .. ووجه الصعوبة فى ذلك هو أنه ما من انسان ـ الا فى النادر ـ يحاول أن يضع نفسه فى موضع الغير بظروفه كلها أو بعضها عند الحكم على تصرفاته .. وقد يكون مرد ذلك أحيانا الى جهل الانسان بظروف الغير أو تجاهله لها .. وقد يكون مرد ذلك الى طبيعة الانسان ذاته .. فمن الناس من يكون محيطا كل الاحاطة بالظروف التى دفعت شخصا آخر الى تصرف من التصرفات ، ولكن طبيعة نفسه غير المنصفة تأبى أن تدرك أو تعترف أنها كانت تفعل عين

هذا الفعل أو ما يشابهه ، لو أنه وضع فى عين الظروف .. وهذا الرفض للادراك أو للاعتـراف اما أن يكون صادرا عن أثرة واعتداد وكبرياء تلقى على البصيرة نوعا من الغشاء ، واما أن يكون صادرا عن ضعف في الخيال وفقر فى التجارب ونقص فى العلم باسرار النفوس .. وذلك أن الحكم العادل على أعمال الغير يتطلب معـرفة تامة بخبايا النفس وخبرة واسعة بخفايا الطبع وخيـالا خصبا يحملنا الى مكان الآخرين فنعيش لحظة بالتصور والمخيلة فى حياتهم بطبائعهم وظروفهم ، متجردين عن الزهو الذاتى ، لنحكم ونقول : هل هم معذورون ؟

قالت العصا :

ـ حقا .. ان روح الانصاف والعـدل لا يمكن أن يحل فى جسد من الكبرياء والجهل ..

استقلال التفكير

قالت العصا :

ـ هل هناك علامة تدلنا على أن شخصا من الأشخاص قد وصل الى مرحلة الاستقلال فى التفكير . . .

قلت :

ـ نعم . . هناك علامة بسيطة : هى أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره ، وأن يعترف بأثر غيره فى هـــذا التفكير . . هكذا نرى غاندى يقـــر دائما أنه مدين بفلسفته الى تولستوى . . ونرى محمد عبده يقول ان أستاذه فى تفكيره هو جمال الدين الأفغانى . . وأرسطو لا يفتأ يكرر أنه تلميذ أفلاطون حتى فيمـــا ابتكره هو من مذاهب . . وجوته يعلن تأثره الشديد بتفكير فولتير الخ . . هذه المعرفة وهذا الاعتراف هما دليل الشخصية الفكرية التى تشعر أنها استقلت بالفعل ، وأنها بلغت فى

استقلالها الحد الذى ترى معه جذورها ، ولا يضيرها أن تذكرها وتتيه بها .. على عكس ذاك الشخص المبتدىء أو الشاب فى مطلع تفكيره فانه لا يستطيع أن يرى المنبع الموحى اليه، واذا استطاع فانه يخفيه فى الحال عن نفسه وعن الآخرين ، مؤكدا أنه ما تأثر قط بأحد . وهو يظل على هذا الجهل أو التجاهل ، مخفيا رأسه كالنعامة فى الرمل الى أن يصلب عوده وينضج تفكيره وتتلون ثماره ، فلا يجد عندئذ بأسا من أن يذكر جذوره ..

قالت العصا :

ـ حقا .. ان الاستقلال فى الفكر لا يبدأ الا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة فى ثمرة الغير !



الروح السلبية

قالت العصا :

ـ يظهر أن هناك شعوبا ايجابية وشعوبا سلبية .. فشعوب الطراز الأول تواجه كل شيء بروح العمل والبناء والانشاء .. وشعوب الطراز الثانى تواجه كل شيء بروح الكسل والهدم واللوم ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. وآية ذلك ما نراه أحيانا في بلادنا من شيوع هذه الروح السلبية .. فما أكثر ما نسمع ونقرأ ونتحدث عن تقصيرنا في كذا وعدم استطاعتنا لكذا ، وتقليدنا لكذا .. وعجزنا عن كذا وفقرنا فى كذا .. ولكن قلما نعثر بيننا على من يتوفر باخلاص وجهد واجتهاد على ما وصلنا اليه بالفعل وما حققناه فى الواقع فيدرسه دراسة دقيقة ، وينظمه ويصفيه ويقومه ويبرزه

حتى يكون أساسا لطبقات أخرى منتظـــرة أو درجات أخري منشودة . .هذه الروح الايجابية البنائية يندر أن نراها فى بلادنا الآن . . بل لقد بلغ من تمكن الروح السلبية فينا أننا نرى بيننا من اذا أراد أن يشيد بعمـل أو شخص لم يجد طريقة يعبر بها عن غرضه غير أن ينتقص من قدر عمل آخر أو شخص آخر . . فهو لكى يضع حجرا لا بد أن يسقط حجرا . . ولهذا لا يمكن أن يقوم بناء أو يتم انشاء . .

قالت العصا :

ـ ان الشعوب فى مبدأ تطورها كالأطفال فى مطلع تكوينهم . . تتغلب عليها الروح السلبية ، فمن السهل على الطفل ، الذى يريد مباشرة نشـاطه والاستجابة الى داعى حيويته ، أن يحقق ذلك بأن يقذف نافذة بحجر . . ولكنه عندما يكبر ويقوى وينضج يرى الوســـيلة فى تحقيق نشاطه هى أن يرسى ذلك الحجر أساسا لبناء . .

وحدة الفكر

قالت العصا :

ـ هل يتحد الناس جميعا فى مستوى الثقافة والفكر فى يوم من الأيام ؟..

قلت :

ـ لو استطعنا أن نتخيل عالما مثاليا يسود الأرض فى يوم من الأيام ، تحل فيه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التى تفرق بين الناس ، وتجعل منهم الغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم والعالم والجاهل .. عالما مثاليا قد أصبح الناس فيه متساوين فى الثروة والسلطة والمعرفة .. لو استطعنا أن نتصور امكان ذلك فان الذى لا نستطيع أن نتصور امكان حدوثه هو أن يتحد الناس جميعا فى درجة واحدة من درجات الثقافة والفكر ... فالتعليم الموحد لا يولد الفكر الموحد ولا

الثقافة الموحدة .. لأن الفكر وليد الطاقة الذهنية التى تختلف باختلاف القوة العقلية فى الأفراد .. والثقافة وليدة ملكات احساسية تختلف باختلاف الطبع والعاطفة والميل الطبيعى فى كل انسان .. فهذا الاتحـــاد فى المستوى الثقافى والفكرى لا يمكن أن يتم الا اذا سبقه تشابه تام وتطابق كامل فى درجات القوى العقليـــة والشعورية ..ولا يبدو حتى الآن ما يدل على أن الطبيعة تنوى اجراء هذا التعديل فى خلق الانسان ...

قالت العصا :

ـ بل انه لمن العسير أن نجد ـ حتى فى طبقة المتحدين فى الفكر والثقافة ـ اتحادا تاما فى الحكم على فكرة من الأفكار أو فى الميل الى أثر من الآثار .. واذا اتحدوا فى الحكم والميل فقلما يتحدون تماما فى الزوايا التى منها نظروا وشعروا .. لعل خطوط العقـــول أو القلوب مختلفة فى الناس كاختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع

عصر الغابة

قالت العصا :

ـ يبدو أن الكرة الأرضية تدور اليوم بسرعة حول محور عجيب .. محور قطباه لا يسميان الآن القطب الشمالى والقطب الجنوبى .. بل اسمهما النجاح والاخفاق .. كل دولة وكل فرد ينجذب الى هذا المغناطيس المسمى « النجاح » .. جاعلا منه ايمانه ودستوره .. فهو يطلبه بأى ثمن دون نظر لأى اعتبار .. وهو يتجنب الاخفاق ولو كان معه الشرف ومبادىء الأخلاق ..

قلت :

ـ أظن أن طلب النجاح ليس بالأمر الجديد على الشعوب والافراد .. ولكن الحق أنه كان فيما مضى مقيدا بحدود .. حدود من المبادىء .. كانت الدولة

تسعى الى الفوز فى الحروب ولكن شيئا من المبادىء كان
يمنعها من استخدام أى سلاح .. وكان الناس يسعون
الى النجاح فى الحياة ، ولكن السلوك القــويم والذوق
السليم ومبادىء الأخلاق والفضائل والمثل العليا كانت
تخجلهم وتصدهم عن طلب النجاح من أى طريق ..
كان طلب الفوز والنجاح موجودا ولكن كان هناك تخير
مفروض بالعرف فى السلاح والأسلوب .. أما اليــوم
فان جموح الدول الجنونى ، وانطلاقها الى الحروب المبيدة
بكل سلاح وحشى دون وازع من ضمير أو رادع من
مبدأ انســانى ، قد أوحى الى النـــاس أن ينطلقوا هم
الآخرون الى النجاح فى الحيـــاة بكل الوسائل ، دون
خجل أو حياء أو زاجر من شرف أو خلق ...

قالت العصا :

ـ عصرنا اليوم لا يعرف غير شــيئين ، دولة منتصرة
ودولة منهزمة ورجل ناجح ورجل فاشل ، والبـــاقى
لا يهم ... انه عود الى عصر الغابة ..

حلقات العمر

قالت العصا :

ـ صدق من شبه حياة الانسان بالنهر .. فهي تجرى حقا في أمكنة متعددة وأجواء مختلفة ، لتصب آخر الآمر في محيط اللانهاية ..

قلت :

ـ بل ان أعجب ما في حياة الانسان أنها ليست حياة واحدة، انها سلسلة حيوات تتابع فيحلقات العمر الطويل .. فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحرى واتجاهها الملائكى .. وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعرى واتجاهها المثالى..وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملى واتجاهها الواقعى .. وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى .. .. وهلم جرا .. وهذه

الحلقات منفصلة فى أكثر الأحيان احداها عن الأخرى، انفصالا ملحوظا .. فان ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى .. فالجمال الذى كان يفتنـك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة ، والكتاب الذى كان يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة ..

قالت العصا :

ـ من هنا جاء تصادم الأجيال .. فكل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التى هو فيها .. دون أن يفطن الى اختلاف الجو عند الآخر .. فمن يعيش فى حرارة الشباب يظن كل شيء حارا .. ومن يعيش فى برودة الشيخوخة يظن كل شيء باردا .. ولو أنصف الجميع لاعترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء ..

عمر الشجرة

قالت العصا :

ـ نسمع فى بلادنا منَ حين الى حين بعض المنتقدين يحملون على نظامنا الاجتماعى ونشاطنا العلمى والأدبى والفنى بقولهم : « انظروا الى المجتمع فى أوربا تجدوا الرقى والتقدم ، أما هنا فانكم تجـدون الجهل والتخلف .. وانظروا الى علمائهم وأدبائهم وفنانيهم تجـــدوا المحصول الوافر والانتاج النـــاضج ، أما عندنا فانكم تجدون الأثر الهزيل والثمر الضئيل .. » . هل معنى ذلك أننا من طينة أخرى غير طينة الأوربيين .. وأنه قد كتب لهم الفوز وكتب علينا العجز ؟ !

قلت :

ـ شأن هذا الطراز من المنتقدين شأن من يمر بشجرة تفاح عمرها عشرة أعوام ، قد تمكنت جـــذورها من

الأرض ، فكثر انتاجها ونضج ثمرها فيعجب بمنظرها ثم يبصر الى جوارها شجرة تفاح أخرى عمرها عامان فقط ، لم تمتد بعد جذورها في الأرض فهزل محصولها وضؤل ثمرها ... فيقف منها موقف الساخر قائلا : « انظروا .. أين هذه من تلك ؟.. » . الى أن يمر به من يسخر بحكمه الساذج لافتا نظره الى أهمية العمر والسن والزمن !.. قائلا له : « أعط هذه من الوقت ما أعطى لتلك ثم احكم !.. » .. قبل أن نحكم على مجتمعنا الحديث يجب أن نسأل عن عمر دعائمه بالنسبة الى أعمار ذلك في نظائره .. وقبل أن نعيب علمنا أو أدبنا أو فننا الحديث يجب أن نبحث متعمقين متى وضعت بالضبط أسسه الجديدة ؟ ومتى بدأت أسس النهضات للعلوم والآداب والفنون في أمم أوربا ؟ ! ..

قالت العصا :

ــ لا يظهر الحكم المتزن الا عندما تظهر تباشير النضج !..

الحلم الحى

قالت العصا :

ـ يظهر أنه لا جهد يضيع عبثا فى هذا الوجود .. حتى جهد أولئك الذين أضاعوا حياتهم فى الأحلام ..

قلت :

ـ هذا صحيح .. حتى جهد ذلك الرجل الذى هام على وجهه فى الصحراء، يناجى شبح محبوبته بشعر يتفجر من خياله المحموم .. لطالما قال فى مثله أهل زمانه : « ذاك رجل ضائع !.. » .. ولا جدال فى أن مثل هذا الرجل الحالم قد ضاع بين حقائق زمنه .. ولكن زمانه مضى بوقائعه وحقائقه ورجاله وأهله .. واذا الرجل الحالم بخيالاته وشعره وأحلامه يصبح حقيقة ثابتة فى زمن آخر وعصر آخر .. ويعيش فى مجتمعات مختلفة متعاقبة باسم « امرىء القيس » أو « عمر بن أبى ربيعة»

أو « شيلي » أو « بيرون » . . ان الفرق بين الحلم والواقع هو فرق في الوقت . . كالفرق بين الليل والنهار . . .
وكثيرون ممن يعيشون في الواقع ، يطويهم الظلام اذا أقبل . . وكثيرون ممن طوتهم الأحلام ، يتحقق حلمهم اذا طلع النهار . .

قالت العصا :

ـ لعل الناس في ذلك ينقسمون الى فئتين : فئة تعيش مع حاضرها وتندمج فيه وترضع لبانه وتعتصر ثمراته ، وتلتصق به التصاقا شديدا في خيره وشره ، فاذا ذهب ذهبت معه . . وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها ، فلا تندمج فيه كل الاندماج ولا تلتصق به كل الالتصاق ، فاذا ذهب لم تذهب معه . . وبقيت الى زمن آخر وعصر آخر . .

الجزء الثانى

فى الآخرة

الاتصال بالعالم الآخر

قالت لى العصا ، وقد رأت فى يدى صحيفة :

ـ ماذا تقرأ هكذا باهتمام ؟ ..

قلت :

ـ اقرأ خبرا عجيبا .. اسمعى :

« جاء أخيرا فى احدى البرقيات أن « جو وليمسون » مؤسس جمعية الدراسات لما وراء الطبيعة ورئيسها السابق قد صرح قائلا : انه سيأتى فى القريب ذلك اليوم الذى يستطيع فيه الانسان أن يرفع سماعة تليفون روحى ، ويضغط على زر جهاز ، ليخاطب الموتى فى عالم الأرواح ، وان التجارب الأولى لو نجحت ، فلن تكون هناك أسباب تحول دون اقتناء كل شخص لآلة تليفونية روحية ، لا تكلفه ثمنا باهظا .. »

قالت العصا :

ـ هذا اختراع عجيب حقا .. تصور هذا الجهاز فى متناول يدنا الساعة ، فمن نطلب من أهل العالم الآخر؟

قلت :

ـ أترك الأمر لاختيارك أنت

قالت العصا :

ـ اتفقنا .. سأتخيل الآن الجهاز أمامى .. وسأطلب روح من يخطر على بالى .. ولك اذا شئت أن توجه الأسئلة وتتلقى الأجوبة ..

مع حواء

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت حواء ..فسمع صوت آت من بعيد :

ـ أنا حواء ... من يطلبنى ؟..

ـ هنا الدنيا !.. نهارك سعيد !.

ـ نهارى سعيد ؟ ! أى نهار تعنى يا هذا ؟ وما معنى النهار ؟..

ـ عفوا . . نسيت أنه لا يوجد عندكم نهـــار ولا ليل !.. بماذا أحييك اذن يا أم البشر ؟.. كيف يسلم بعضكم على بعض فى الآخرة ؟..

ـ لا حاجة بنا الى ذلك . .ماذا تريد منى ؟..لاتضيع الوقت فى التافه من الكلام . .

ـ هل آدم معك ؟.. ليكن فى علمـــك أنى طلبت محادثتك على انفراد ؟..

ـ اطمئن . . انه اعتاد من زمن طويل . . منذ كنا على الأرض أن يسد أذنيه عن محادثاتى الخاصة . . .

ـ وهل كانت لك محادثات خاصة على الأرض ؟

ـ طبعا !.. وحتى قبل أن نهبط الى الأرض ، ألم أحادث الحية طويلا . . لقـــد كان آدم يرى كل شىء ويتظاهر بالصمم . .وعندما أخبرته بجمال شجرة التفاح سمى عملى اغراء . . وعندما سئل عن حديثى مع الحيـة قال انه لا يستطيع منع امرأة من الحديث والثرثرة

ـ حقا . . انه يلقى عليك أنت كل التبعة فى اخراجه من الجنة . .

ـ ولو علمت كيف سمم حياتى بعد ذلك طـــــول وجودنا على الأرض !.. انه لا يريد أن يفهـــم أنه

شريكي في كل ما فعلنـــا ونفعل .. ولكنى فى نظره مخلوق وجد ليلقى عليه مصـــائبه وكوارثه ، وعواقب ضعفه ونزواته .. يا لقســـوته ! انه لا يريد حتى أن يعتبرنى ضلعا من أضـــلاعه !. كلا !.. ان له ساقين تحملان جسمه،فلا بد من ثالثة تحمل ذنبه ووزره !.. أنا هذه الساق

ـ لو عرفت كيف تكلف هذه الساق رجال اليوم ؟! انها تغلف فى جوارب من « النايلون » باهظة الثمن !.

ـ ما هذا « النايلون » ؟.. أهو نوع من ورق التوت

ـ لا يا جدتى .. انه نوع من ...

ـ رجائى اليك ألا تنادينى بجدتك !.. لست أدرى لماذا كان يثقل على أذنى هذا اللفظ ؟ ثم انك لا يمكن أن تتصور مقدار ما كنت عليه من حسن !.. ثق أنى لم أنجب ابنة قط فى مثل جمالى !.. ومهما يكن فى آدم من عيوب ، فان له فضيلة لا تنكر ، وهى خضـــوعه لحسنى ، وافتتـانه بجسمى ، واذعانه لرغباتى ، وتنفيذه لطلباتى ..ولو كنت أمرته أن يحضر لى هذا الذى يغلف الساق ... ماذا قلت عنه ؟.

ـ جوارب النايلون !..

ـ نعم .. حدثنى عن هذا النايلون ..

ـ وما فائدة ذلك الآن .. مادام آدم لا يستطيع أن يحضره لك فى العالم الآخر ؟..

ـ صدقت .. انه لا يحضر لى شيئا .. لقد شاخ وهرم .. أقصد عندما كان فى الأرض ، لقد كانت الحياة معه لا تطاق .. لقد كثر سعاله وضاق خلقه وثقل ظله .. ولكن أين المفر لمسكينة مثلى !.. لو أن فى ذلك العهد آدمين على الأقل !.. ولكنه هو دائما أمامى آدم واحد بوجهه المقطب المجعد، وحديثه الممل الذى لايتغير

ـ لا تحزنى !. مشكلتك كانت هينة ، الى جانب مشاكل المرأة فى العصر الحديث ... أخبرينى : ما رأيك فى موضوع منح المرأة حق الانتخاب ؟..

ـ انتخاب من ؟ زوجها ؟.. أهذا ممكن ؟. انى لأغبط تلك المرأة التى تستطيع أن تنتخب زوجها وتختار رجلها ؟.. حسرة على !.. لم يكن لى حق انتخاب ولا اختيار ، كان رجلا واحدا فكان على كل حال خيرا من لاشيء وكان حتما على الرضا به والسكوت

ـ لا .. لست أقصد حق اختيار الزوج.. فهذا فى

يد المرأة اليوم ، ولكنى أقصد حقهـــــا فى أن تحكم وتسوس وتقود ..

ـ ومن قال لك انى لم أحكم ولم أسس ولم أقد ؟. من الذى قاد آدم من يده وأخـــــرجه الى الأرض ؟ لا تصدق امرأة تزعم غير ذلك .. لكل امرأة تفاحتهـا التى تقود بها الرجل !..

ـ قلت ذلك فلم يصدقونى .. لأننا فى عصر نصدق فيه النظريات ولا نصدق الحقائق .. فاذا شاع مذهب يقول ان المرأة ضعيفة ، فيجب أن نصـــدقه حتى ولو رأيناها بأعيننا تمسك بيدها رجلا وتلقى به من حالق

ـ من ذا الذى يسمينى ضعيفة ؟ يبدو لى أنى منـــذ عشت على الأرض حتى اليوم ، وأنتم تعيشون فى غلطة تغذيها دائما بلاهتكم معشر الرجال !.. وهى أن المرأة ضعيفة .. ما من امرأة ضعيفة .. انها تتظاهر بالضعف، كما يتظاهر الرجل بالقوة !..

ـ ماذا تقولين فى كثير من رجال اليوم الذين يسمونها كذلك ليقال عنهم انهم مجددون !..

ـ لهؤلاء تستطيع أن تنقل عنى هذه الضحكة الصغيرة سخرية بهم !..

ـ عجبا !.. يا لها من ضحكة ما كنت أظنها معروفة في عهدك !..

ـ من كنت تظنني اذن يا هذا ؟. يا لك من ساذج ! صدق ما توقعت منك وتوسمت فيك !.. أو كان آدم يستطيع أن ينجب غير بسطاء من أشباهه !..



مع هتلر

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت هتلر . . فسمع صوت يجيب :

ـ أنا هتلر . .

ـ أخبرنا هل أنت مت حقا ؟ أو أنك حي مختبيء في مكان ما ؟ . .

ـ انى حي مختبيء . .

ـ أين ؟ . . أين ؟ . .

ـ في قلب كل ألماني على وجه الأرض . .

ـ جثة من التي وجدت في قبو دار المستشارية ببرلين ؟

ـ جثتي

ـ هل انتحرت ؟ أو قتلت ؟

ـ وماذا يهم ذلك ؟ .. كل ما أردت هو أن أترك لأعدائي جيفتي .. أما الروح فهي التي لن يأخذوها أبدا .. وهي على الرغم منهم باقيــة أبدا ، وهي عندما خرجت من جثماني ، دخلت فكرة في نفس كل ألماني

ـ هل تشعر الآن وأنت في عالم الصفاء أنك مجرم؟

ـ نعم اني مجرم .. فقد أخلصت لبلادي حتى الموت .. وهذه في نظر الانجليز أكبر جريمة يقترفها رجل غير انجليزي ! لأنه ليس مسموحا لأحد أن يتفانى في حب بلاده غير الانجليز !

ـ ألم يبلغك ما قاله عنك تشرشل .. انك كنت تحب شخصك أكثر من حبك لبلادك وانك جمعـــت أنت وأعوانك في المصارف أموالا تقدر بالملايين ؟

ـ لقد عثروا على جثتي ، وكان أيسر من ذلك أن يعثروا على شلن واحد من هذه الملايين المكدســة في المصارف .. ولكنك لا تعرف تشرشل ..

ـ أعرف أنه هو الذي قادك الى الهزيمة ..

ـ هل تظن ذلك ؟.. ان الذي أعرفه هو أن ستالين قاد الجيوش وروزفلت قام بالتموين ، أما تشرشل فكان البهلوان الذي يصيح ويثرثر ويقفز من ميدان الى ميدان

رافعا ابهامه فى الهواء !

ـ انه كان يلعب دور النبى الديموقراطى بطل ميثاق الأطلنطى !

ـ وماذا حدث لهذا الميثاق ؟.. تبخر فى الفضاء .. أليس كذلك ؟ قلت لك أنت لا تعـرف تشرشل ! هل رأيت على الأقل دخانه ؟ !

ـ تقصد دخان سيجاره ؟

ـ ها أنت ذا تسميه سيجارا ؟ كلا .. ان تشرشل ليس سوى مصنع أكاذيب متحرك .. وهذا الذى فى فمه دائما مدخنة المصنع !..

ـ حقا .. لقد صدر الينا من بضاعة مصنعه ما لا ننسى .. وموقفه منا فى اعلان الجلاء ، وفى ديون الاسترلينى لأكبر دليل على أنه يكذب علينا بالسهولة التى ينفث بها الدخان من مدخنته !..

ـ لقد امتد دخانه حتى الى حياتى الخاصة .. لن أنسى أنهم تحدثوا بما لا يليق عن ايفا ..

ـ ايفا براون ؟..

ـ نعم .. زوجتى المخلصة .. المخلصة حتى الممات

انها الآن معى هنا ، وهذا كل عزائى ..

ـ لماذا لم تجلس زوجتك بجوارك على عرش مجدك فى الدنيا .؟ ولم لم تجعلها تحتل مكان السيدة الأولى فى المجتمع الألمانى ؟..

ـ عبثا حاولت ذلك معها .. ولكنها هى التى رفضت وأرادت لنفسها هذا الانزواء عن المجد والمجتمع والناس .. لأنها لم تشأ أن تستخدم صلتى بها لمصلحتها الشخصية ، ولا أن تستغل علاقتها بى للظهور .. لقد كانت أنبل من ذلك نفسا وأرفع شعورا وأصدق عاطفة، وأعمق اخلاصا ، وقد فهمت أن رسالتها هى أن تكون بجانبى فى ساعات الضعف والوحدة والوحشة المظلمة لا أن تتألق للناس فى ساعات المرح وساحات النصر وحلبات الرقص !

ـ كيف ماتت ؟.. ومتى ؟.. قبلك أو بعدك ؟..

ـ لقد أصرت على أن تموت قبلى بدقائق .. وقد سمت ذلك مكرمة تطمع فيها منى .. أن آذن لها بذلك .. لأنها لا تستطيع أن ترانى أموت .. ولقد قالت لى ان هذا واجبها كزوجة أن تسبقنى ولو بلحظات الى الدار الآخرة ، لتكون هناك فى استقبالى ! فأذعنت،

وأمرت طبيبي الخاص الموكول اليه هذه المهمة ، أن يبدأ بحقنها هي أولا بالسم الذى أعد لذلك .. وقد ماتت أمامي في مثل لمح البصر بلا ألم وكأنها اغفاءة انتابتها على حين فجأة .. فأمرت عندئذ الطبيب أن يصـــنع بى ما صنع بها ، فما كادت ابرة الحقنة تغرز فى جلدى حتى أغفيت ثم تنبهت فاذا أنا بجوار ايفا .. فى عالمنـــا الذى أخاطبك منه !..

ـ ألا يقوم الآن فى نفسك أسف لاثارتك الحرب ؟

ـ لست آسف على سوء الحظ !

ـ لقد أردت أن تقامر بكل شيء فكان من الواجب أن تتوقع الحظ السيء .. كما تتوقع الحظ الحسن !..

ـ عندما تكون المسألة بالنسبة لأمة ، مسألة حيـاة أو موت فلا بد من المقامرة بكل شيء .. ولقد قامرت ألمانيا بحياتها مرتين فى ربع قرن !..

ـ ألم يخطر لك أن تدرس طرائق انجلترا فى المقامرة ؟

ـ انجلترا لا تدخل أبدا فى ميـدان اللعب الا وفى كمها أوراق مغشوشة !..

ـ ربما ولكنها استطاعت أن تكسب امبراطوريتهـــا الواسعة .. لعبة لعبة .. وورقة ورقة .. وخدعة خدعة

.. على مهل .. دون أن تثير ريبة اللاعبين ، أو سخط المراقبين ، أو حذر المحاذرين ...

ـ صدقت انها دائما تحتـــل مكانها من المائدة ، فى صورة « لورد » يرتدى ثياب السهرة ويضع «المونوكل» ويجلس بتؤدة ووقار بورقه المغشوش .. فى كم قميصه المنشى .. بين قوم شرفاء لا يشكون فى سـلوكه ، ولا يعتبرونه الا مثال النزاهة والصـــدق والشرف ، لأنه لا يتحدث فيمن حوله دائما الا بهذه الكلمات،ويظل هذا « الجنتلمان » اللص يبتز أموال ملاعبيه ، ويختلس ما فى جيوب مجالسيه ، بابتسامة لهذا وملاطفة لذاك ، ومهادنة مع واحد ، ومواطأة مع ثان ، واتفاق ودى مع ثالث .. الى أن تنتهى الليلة بمكسبه المرسوم ، فينهض مشـــيعا بالاحتـــرام قائلا للحاضرين : « جود باى جنتلمين » الى الليلة القادمة !.. وهلم جرا ..

ـ أما أنتم معشر الألمان فلا صبر لكم .. تريدون فى ليلة واحدة وبهجوم خاطف وحظ بارق أن تحصلوا على كل شىء دفعة واحدة !..

ـ لأننا لسنا لصوصا !.. لقد كان فى يدنا حقـــا ورقة فائزة ، حصلنا عليها بكدنا وعرقنا وعبقريتنا وعلمنا .. وكنا نظن أن هذه الورقة الصحيحة وحدها يمكن

أن نقامر معها بكل ما لنا وحياتنا !..

ـ لا تنكر أن الانجليز في هذه الحرب الأخيرة قامروا هم أيضا بكل ما لهم وحياتهم ؟ !

ـ لا يا سيدي انهم قامروا بكل حياة الفرنسيين وبكل ما في جيوب الأمريكان !

ـ والآن ما رأيك في المستقبل ؟

ـ رأيي أقوله في جملة واحدة وأنصرف عنك : « لقد خسرت ألمانيا الحرب لأنها كانت وحيدة وسيخسر الحلفاء السلام لأنهم عديدون » !..



مع كليوباترا

ضغطت العصا على زر الجهاز .. وطلبت كليوباترا .. فسمع صوت جميل :

ـ أنا كليوباترا .. من يخاطبنى ؟

ـ شخص لا علاقة له بأنطونيو

ـ من أنطونيو ؟

ـ عجبا .. ألا تعرفين حبيبك الذى انتحرت من أجله ؟

ـ من قال لك اننى انتحرت من أجل أنطونيو ؟

ـ ألم تسكبى فى جسمك السم من أنياب الحية عندما علمت أنه أغمد خنجره فى جسمه من أجلك ؟

ـ ربما مات هو بسببى ، ولكنى لم أمت بسببه ..

ـ أتنكرين أن الحب هو الذى ..

ـ الحب عند الرجل مرض ، فلا عجب أن يحـــاول التخلص منه بالموت ، ولكن الحب عند المرأة صحة فلا معنى أن تتخلص منها بالانتحار ..! كلا يا هذا ... أنطونيو مات لأنه فقدنى ، وأنا مت لأنى فقدت عرشى!

ـ ألم تقابلى أنطونيو فى الآخرة ؟

ـ بالطبع تقابلنا مرة أو مرتين ، وضحكنا كثيرا من حماقتنا على الأرض .. وقد اتهمنى بأنى أضـــــعت مستقبله .. وقد اتهمته بأنه أضـاع عرشى !.. ولكن الحب على أى حال لم يكن موضوع الحديث ..

ـ أنت اذن لا تؤمنين بالحب

ـ انى كامرأة أومن بالحب .. ولكن مثلى لم يكن لها الحق فى أن تكون امرأة . اذا قدر لرأس أن يحمل تاجا .. فلا ينبغى أن يؤمن بغير شىء واحد : أن يحافظ على ذلك التاج حتى لا يسقط منه فى التراب ، لأنه اذا سقط .. سقط معه شعب بأسره .. كان جبينى يحمل تاج مصر .. ذلك الجبين الذى قيـــل انه ناصع وضاء جميل .. وكانت روما غول الدنيا الذى يبتلع التيجان والعروش ، غولا ذا رأسين ، أحدهمـــا يدعى قيصر والآخر أنطونيو .. كان من المستحيـــل على ذراعى

الطريتين أن تضغطا على عنقى الرأسين فى عين الوقت.. فضغطت أول الأمر على عنق قيصر ، حتى ثبتنى على عرشى ، وضمن لى من جانبه الأمان ، ثم أفلت منى .. ولكن الرأس الآخر انحنى لى بعد ذلك طائعا، ومكنتنى الفرصة من أن أعصر ذلك العنق وأهصره ، وأسيره وأسخره لمصلحة بلادى ، حتى وهن وخار ولفظ النفس الأخير .. ولكنى معترفة أنى بذهابه ذهب منى كل شيء .. حسبى أنى استطعت أن أحارب ردحا من الزمن .. وأن أجعل الرأسين يتناطحان بدل أن يجتمعا على ابتلاع الأرض ..

ـ ولكنك أحببت أنطونيو حبا حقيقيا !..

ـ ربما ، ولكن ألم يخطر لكم أن تتساءلوا : اذا كنت أحبته حبا حقيقيا فكيف لم أترك عرشى وتاجى وشعبى لأخرج مع حبيبى الى جزيرة نائية فى وسط البحار ، نعيش للحب ، ولا لشيء غير الحب ؟.. هكذا فعل فيما علمت ملك من ملوككم العصريين !..

ـ نعم ملك انجلترا السابق من أجل ليدى سمبسون !

ـ وهذا رجل لا امرأة .. رجل يزن الأمور ، كما

يقال ، لا امرأة تدفعها الأهواء .. ملك من ملوك هـذه العصور لا ملك من ملوك الأسـاطير !.. ملك ذكى طموح ميال للاصلاح كما علمت ، يترك شعبه المحتـاج الى ذكائه واخلاصه ليعيش فى جزيرة نائية مع من ؟.. مع امرأة لا جمال لها ولا نضارة ، ولا عراقة .. لكن هذا لا يستغرب .. يكفى أن تعلم أنه انجليزى لتحكم فى الحال على مقدار ذوقه !..

ـ حقيقة .. هذا سؤال يجب أن نلقيه على أنفسنا : لماذا لم تتركى شعبك وتذهبى مع أنطونيو ؟ !

ـ انى لم أفعل ذلك حتى بعد الهزيمة فى موقعـة اكتيوم .. وقد تبين لى شبح روما تبتلع مصر .. ويد المنتصر تضع فى معاصمى الأغلال ... ولم يبق لى من شخصى الا المرأة ، وفى كنوزى غير الحب .. ما كان أنطونيو وقتئذ يتمنى من دنياه غير الهرب معى الى جزيرة نائية مجردة عن العروش والتيجان لنقضى بقية العمـر فى سلام وصفاء وأمن وغرام .. ولكننى لم أفعل .. لأنى كما قلت لك ، لا أملك الحق فى أن أكون مجرد امرأة .. خلفى شعب أنا ملكتــه .. وعلى جبينى تاج حكمه .. لا ليضىء بمتعتى .. بل ليتألق بمجـده .. ويوم يضام هذا الشعب يجب أن أموت !.. ذلك قانون

التيجان .. هى نور ونار فوق الرؤوس ، وليس لمن كتب عليه حملها أن يهرب من هذا المصير !..

ـ وما قولك اذن فى ذلك الذى هرب ؟.. لماذا لا تقولين انه كان يحب .. أما أنت فكنت امرأة لا قلب لك ..

ـ أرجو ألا تؤلمنى بهذا الكلام .. ليس لك أن تتهم قلبى وأنت لا تعرف عنه شيئا .. هذا القلب الذى اتسع لحبيبين! وطنى وأنطونيو ! كل ما سمعته منى حتى الآن كان حديث ملكة ! ولكن المرأة لم تتكلم بعد .. لقد أحببت أنطونيو حبا لم ينسنى آمال بلادى .. ولكنه كان حبا عظيما ..

ـ حب أنطونيو لك هو الذى كان حبا عظيما ؟ !

ـ لست أنكر ذلك .. ولن أنسى أبدا لحظة موته : لقد كانوا أبلغوه كذبا نبأ موتى .. فصاح : وما تنتظر بعد الآن يا أنطوان ! لقد سلبك القدر من كانت تحبب اليك الحياة !.. قالها وهو يدخل حجرته وينزع عنه درعه ثم مضى يقول : « كليوباترا ، لا أشكو من فقدى اياك فأنا لاحق بك بعد قليل ، ولكن الذى يحزننى هو أن امبراطورا قويا مثلى تسبقه فى الشجاعة امرأة » ! ولم أكن للأسف قد سبقته ولا استحققت هذا الاطراء !

ـ ولكنه مات ولم يعلم أنك على قيد الحياة ..

ـ بل علم ولم تكن روحه قد فارقت بعد جسده ،فأمر رجاله أن يحملوه الى ، فما كدت أراه حتى فقـــدت صوابى ، وصرت أمسح دماءه بوجهى ، وأمزق غلائلى وأضعها عليه ، وأضرب بيدى صدرى ، وأنشـــب فى لحمى أظافرى ، وأناديه ياروحى ، ويا حبيبى .. وقد طلب خمرا ليروى به ظمأه أو ليعجل به موته ، ومات وهو يرجو لى أن أوفق الى الوسائل التى تصون كرامة ملكى وشرف شعبى ..

ـ وتركته يموت ولم تموتى معه ؟..

ـ لو كنت مجرد امرأة وزوجة وحبيبـــة لفعلت .. ولكن هذا أيضا لم يكن من حقى .. كان على أن أفاوض قيصر المنتصر ، ليبقى مصر لأبنائها .. ويجعل ملكهـا فى أولادى .. ولا يخضعها لحكمه ولا لحكم روما،ولكنى رأيت المراوغة فى عينيه فأدركت أن مهمتى قد انتهت .. وأن على الملكة أن تؤدى واجبها .. وعلى المرأة أن تطلق العنان لعواطفها وتسير الى مصيرها ..

ـ وماذا كان ينوى قيصر أن يفعل بك ؟

ـ كان يريد أن يرسلنى مع أولادى الى روما ..

لأعيش أسيرة وأموت غريبة فى تلك البقاع !.» ولكنى لم أمكنه من تحقيـــق أمنيته .. وانى لم أزل أذكر الكلمات التى لفظتها على قبر أنطونيو قبل أن أموت .. ولقد كنت سألت قيصر أن يأذن لى فى اجراء الطقوس الجنائزية لأنطونيو ، فأذن .. فذهبت مع وصـــيفاتى وألقيت بجسمى على قبره وجعلت أصيح به : «ياعزيزى لم تمض غير أيام قليلة منذ أن وضعت على جثمانك يدين .. كانتا فى ذلك الوقت طليقتين ، واليوم أجىء اليك بهما مصفدتين فى غل الاستعباد .. لا تنتظر بعد الآن من كليوباترا تكريما خيرا مما ترى .. وهذا مع ذلك آخر ما تستطيع تقديمه اليـــك .. فهم يريدون أن ينتزعوها من جوارك .. طول الحياة التى عشناها معا .. ما استطاع أحد أن يفرق بيننا .. واليـوم يريدون أن يقصوا فى الموت أحدنا عن الآخر .. فأنت الرومانى ستمكث هنا تحت ثرى مصر .. وأنا المصرية سأدفن هناك فى ايطاليا .. أنطونيو ، خبئنى معك تحت هذه الأرض .. دعنى أقاسمك قبرك هذا .. من بين كوارثى التى لا تعد .. واحدة هى أشـــقها على نفسى .. تلك هى الأيام القليلة التى عشتها بعدك ! » .. وذلك كان آخر ما خاطبت به أنطونيو على الأرض وكنت مخلصة فى

كل حرف لفظته ، ولقد توجت بعد ذلك قبره بالزهور، ثم قبلته ، ونهضت آمرة باعداد الحمام .. واغتسلت ثم تناولت من الطعام أفخره ، ولبست ثيابى الملكية ، واضطجعت على سرير من ذهب، ثم أمرت باحضار الحية التى ستخرجنى من الأرض الى السماء . كما أخرجت الحية الأخرى حواء من السماء الى الأرض ..

ـ أرجو لك الراحة فى السماء فان أهل الأرض ينهشون سيرتك فى كل زمان !..

ـ فليقولوا ما شاءوا .. كل ما على الأرض عبث .. ولكنى مع ذلك لم أكن شريرة .. كنت ملكة تحب شعبها ، وامرأة تحب رجلها ، وأما تحب أولادها .. كل مأساتى أن قلبى الواحد كانت تنهشه هذه الألوان المختلفة من الحب !..

مع روميو وجوليت

ضغطت العصا على زر الجهـــاز .. وطلبت جوليت وروميو .. فسمع صوت رقيق :

ـ أنا جوليت !.. من يخاطبنى ؟ اسكت يا روميــو .. دعنى أخاطب هذا الذى ينادينى من عالم الدنيا .. ماذا تقول يا روميو ؟ أنا خفيفة طائشة متبذلة مستهترة .. أسعى الى لفت الأنظار ؟.. وأنت أتنسى نفسك : أيها الفظ السخيف الخالى من الرقة والاحســـاس ؟. اذهب عنى .. اذهب عنى قليلا .. دعنى أتنفس بعيدا عنك لحظة .. ألا يستطيع أحدنا أن يعيش منفصلا عن الآخر دقيقة ؟.. اذا قالوا جوليت قالوا روميو ، واذا قالوا روميو ذكروا جوليت .. يا لها من « لصـــقة » ثقيلة !.. والى متى ؟ الى متى ؟..

ـ آلو .. آلو .. هنا الدنيا ...

ـ أنا جوليت .. من يناديني ؟ أف !.. الحمد لله قد ابتعد عني ..

ـ تقصدين روميو ؟ ..

ـ طبعا ومن غيره أقصد ؟ لعنة الله عليه !

ـ عجبا .. كنا نحسبك سعيدة معه في الآخرة ..

ـ سعيدة ! مع هذا الجلف ؟

ـ جلف ؟ تقولين ذلك عن روميو هذا المثل الجميل للرقة في العاطفة والشاعرية في الغرام ؟

ـ أخدعكم أنتم أيضا .. كما خدعني ؟ ولكني كنت فتاة بريئة غريرة فتنني هذا « البهلوان » وهو يتسلق الحبل الى شرفتي في اطار خلاب من ليل ناعس وقمر طالع وشجر هامس وبلبل صادح ، ولقد أخلصت له الحب حتى قادني حبي الى حتفي ..

ـ هو أيضا قاده حبه لك الى حتفه

ـ هذا صحيح .. لقد كنا قلبين مجنحين يطيران بلا بصر ، كالوطاويط .. في نهار العقل والمجتمع !..

ـ كنتما شعرا رائعا يطير في ربيع الأجيال !..

ـ أتصدق هذا الهراء ؟.. ولكنك معذور !.. أنا أيضا صدقته يوما .. وما كنت أرى في روميو الا

« نغما » يرتدى سراويل موشاة ويتحلى بسيف مذهب ، وما كان هو يرى فى الا « أغنية » تبدو فى شرفتها تلمع فى الدمقس .. ولكنى ما رأيته قط انسانا ، وما رآنى قط انسانة .. حتى تعانق النغم والأغنية وانطلقا فى الفضاء من دنيا الأرض الى السماء .. حيث الأردية تخلع والمعدن يظهر .. وبدت الطبائع على حقيقتها .. فاذا طبع روميو شىء آخر عما تخيلته وتتخيلون.. انك لن تدرك ما أقول .. لأن الذى بقى لكم منا فى الأرض ذلك النغم والأغنية « روميو وجولييت » !

ـ ما أحلاهما اسمين وعشيقين !..

ـ وما أشقاهما من زوجين !.. لو أن القدر مد فى أجلينا على الأرض لشاهدتم بأعينكم نهاية هذا الحب واخفاق ذلك الزواج ، فأنا التى عرفت بعدئذ طباع روميو السيئة ، ورقته الزائفة ، أؤكد لك أنى ما كنت أحتمله زوجا فى الدنيا أكثر من شهرين !.. وهو أيضا يقول عنى مثل ذلك، ويتهمنى بالابتذال والاستهانة والأنانية ..

ـ حمدا لله اذن الذى خطفكما من الأرض فى الوقت المناسب .. والا كانت وقعت أعظم قضية طلاق عرفها التاريخ ..!

ـ الطلاق !.. يا له من نعمة ! ولكن هيهات أن نظفر به ها هنا .. ما دام القدر قد سلط علينا ذلك المجنون الذي يصلح بيننا كل ساعة على الرغم منا

ـ ذلك المجنون ؟ !

ـ نعم ، شخص يسمى « شكسبير » .. لسنا ندري ما شأنه بنا .. يتدخل في أمورنا .. ويحشر نفسه بلا مبرر في كل صغيرة وكبيرة مما يمسنا .. كلما احتدم الشجار بيني وبين روميو .. طلع لنا « شكسبير » هذا .. فجعل يقبل رأسينا وأيدينا وأقدامنا ، يتوسل الينا أن نمسح « العيب » في ذقنه .. وأن ننهى الخلاف الذي شجر .. زاعما أن سوء أدبنا وخلقنا وما نتراشقه من بذيء الألفاظ أحيانا في خصامنا ، أشياء تمس كرامته شخصيا وتنال من سمعته .. وفي الحق أن اخلاصه وحرارته ودموعه التي يذرفها كل مرة تألما من حالنا تثير فينا الشفقة عليه ، فنذعن صاغرين ، ونهدأ مكرهين ..

ـ أو لا تعرفان ما هي علاقة « شكسبير » بكما ؟..

ـ أبدا .. ماذا يكون أكثر من شخص يعيش على هامش حياتنا .. متمسكا بنا « متمحكا » ؟. وأمثال هذه

« الطفيليات » كما تعلم لا تخلو منها أسرة .. ولكنه مع ذلك شخص طيب القلب كل غايته أن يسود الصفاء بيني وبين روميو .. وأن نتبادل أرق عبارات الحب .. وأن يسمعنا نتحاور بذلك الشعر الرقيق الذى أنشدناه فى الشرفة تلك الليلة المقمرة .. فيجلس بيننا .. ويرجو من روميو أن يردد عبارته المعروفة : «ياسيدتى النبيلة .. أقسم على حبك بهذا القمر الساحر .. هذا القمر الذى يطلى بالفضة رؤوس الشجر !» . فأجيبه أنا بعبارتى المشهورة : « آه .. لا تقسم أبدا بالقمر .. هذا القمر المتغير .. الذى يبدل قرصه فى كل شهر .. انى أخشى أن يكون حبك متغيرا كالقمر ! .. »

ـ أما كان ترديد هذا الشعر يثير فيكما شجون الماضى ؟ ! ..

ـ لا .. على الاطلاق .. انما كنا نردده لنسر ذلك المسكين « شكسبير » .. وكان هو وحده الذى يتأثر من انشاده وتبعث فى نفسه الشجون .. ويطرق طويلا، ويهبط فى غياهب الذكريات ويغرق فى بحار التأملات .. ولا يوقظه مما هو فيه الا عودتنا الى العراك أنا وروميو .. فينهض واضعا اصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع ألفاظ السباب ، تحل فى رأسه كما يقول محل

ذلك الشعر الذى كان يخلب الألباب !

ـ لقد عذبتما هذا الرجل فى الآخرة

ـ عذبناه ؟ ! .. بل هو الذى عذبنا .. ماله ومالنا .. أمامه الآخرة واسعة .. فلماذا لا يحلو له وجود الا معنا ؟ ! . انى لا أستطيع أن أحادث زوجى روميو على انفراد دون أن أجد « شكسبير » هذا يتسمع .. ولا أن أفعل شيئا دون أن أجده يتفقد سلوكى .. هذا لا يطاق .. انه بيننا مثل الحماة فى بيت الزوجية !..

ـ وروميو .. هل يحبه ؟

ـ روميو مثلى يعجب لوجود هـــذا الرجل بيننا .. ولكن يظهر أن هذا أمر لا حيـــلة لنا فيه .. لو أنى نجحت فقط فى أن أجعله ينحاز الى جانبى ضد روميو لكان له بعض النفع .. ولكنه ثابت فى موقفه لا يحيد عنه : يجب أن نتصافى دائما ، انا وروميو ، وأن يموت أحدنا فى الآخر حبا .. هذا كل غرضه .. وهويقول دائما ويكرر أن هـــذا هو دورنا المقدر لنا الى الأبد ، ويجب ألا نخرج عنه قيـــد أنملة .. وهذا بالطبع قول مجانين .. ولا يمكن فى أى حيـــاة زوجية أن يستمر هذا طويلا ، كيف يريد منى هذا المجنون أن أتغنى طول الأبد باسم روميو كما كنت أتغنى به قديما ليلة قلت :

ان الوردة اذا تغير اسمها لما كفت عن نشر شذاها الحلو وعطرها .. كذلك روميو لو غير اسمه لما انفصلت عنه شخصيته الكاملة ولا صفاته الساحرة !.. لا أستطيع أن أقول ذلك اليوم عن زوج يضايقنى بملاحظـــاته السمجة . اليك مثلا بسيطا ... لقد حدث منذ وقت ليس بالبعيد أن صعدت الى الآخرة امرأة مولعـــة بالأناقة ، قيل انها ماتت من السكر فى حفلة ساهرة .. ولقد رأيت فى قدمها حـذاء بكعب عال عجيب الطراز فاحتلت حتى حصلت عليه ، ووضعته فى قدمى . فصاح بى روميو ساخرا : « مرحى بجوليت ، زهرة(فيرونا) النقيـــة ، وسليلة آل كابوليت .. لقد انقلبت غانية من غانيات باريس المتهتكات ! » .. فلم أتمالك من الغيظ ، ونزعت « فردة » حذاء رميت بها روميو .. ولكنـــه انحرف عن مرماها فأصابت صلعة شكسبير !..

ـ يا له من ضحية !..

ـ من ؟ .. روميو ؟..

ـ لا .. بل ..

ـ عفوا .. هذا روميو قد اقترب .. ولن يتركنى بغير تنغيص .. أنصح لك أن تطلب محادثتى فى وقت

آخر .. اسكت يا روميو .. لا .. انى لم أتحدث عنك بخير ولا بشر .. انك سمعت اسمك خطأ .. تقـول انى كاذبة ؟. بل أنت المغرور السخيف .. اذ تعتقـد أنى لا أجد موضوعا غيرك أتحـدث فيه .. آه ! لكم أتمنى الخلاص منك .. متى يقولون : « جوليت » فقط دون أن يلصقوك بى .. جوليت بدون روميو .. متى ذلك ...متى ؟ انك « لصقة » .. لصقة ثقيـلة ! .. لصقة أبدية !..

مع جان دارك

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت « جان دارك » .. فسمع صوت يقول :

ـ أنا جان دارك ...

ـ القديسة ؟

ـ ما قصدت أن أكون قديسة ، ولكنى قصدت أن أطرد الانجليز من أرض وطنى فرنسا ..

ـ أنت أيضا ؟ ومنذ خمسمائة عام ؟.. كل انسان يريد أن يطرد الانجليز من أرض وطنه !.. هـــذا الطاعون المنتشر فى الدنيا من قرون .. متى يجلو عن أراضى الناس ؟ !

ـ هل أنت فرنسى ؟ !

ـ لا يا سيدتى

ـ أنت اذن محظوظ يا سيدى

ـ لماذا ؟ ..

ـ لقد كنت أنا فرنسية .. وطردت الانجليز ، فحرقنى الفرنسيون حية !..

ـ كانت غلطة لا تغتفر !.. ندم عليها الفرنسيون فيما بعد وحاولوا أن يكفروا عنها بأثواب البطولة والوطنية التى أسبغوها عليك .. ألم تشاهدى من عليائك ذلك التمثال الرائع الذى نصبوه لك فى أفخم ميادين باريس .. يمثلك فى دروع الحرب ، منتضية السيف ، ممتطية جوادك المطهم ؟

ـ بلى .. رأيت ذلك وصدقته ، ولكن ما قولك فى نابليون الذى جاءنى هنا فى العالم الآخر يحيينى ويقدم الى نفسه ويقول لى باسما : « مصيرى مصيرك .. والفرنسيون هم الفرنسيون ! » . لقد كان يبكينى هذا الرجل وهو يروى لى قصته ، فى نبرة حزينة ، تلمع فيها السخرية ، كما يلمع البرق فى السحابة القاتمة .. روى لى خبر ذلك المجد الذى عقده على جبين وطنه .. وذلك النصر تلو النصر الذى جعل من فرنسا غولا أفزع الانجليز وحد من شهوتهم للسيطرة ، وهدد

خطتهم المرسومة للتوسع والانتشار فى كل البقاع ..
فأقسموا سرا أن يؤلبوا عليه الثعالب والضباع لأن هذا
الأسد الانجليزى أجبن من أن يخرج للصيد بمفرده
فهو يهجم بهيبته ، ويجعل الآخرين يهجمون بالمخلب
والناب ، فاذا وقعت لهم الفريسة ، كان له منها نصيب
الأسد وللأعوان ما ينبذه السيد المهاب .. ونجح
الانجليز آخر الأمر لأن كثرة الأعوان تغلب شجاعة
الفرد .. وهزم نابليون .. وانتظر من أمته أن تضمه
على الأقل الى أحضانها .. وأن تقول له : لقد أديت
واجبك أيها الابن البار .. وآن لك أن تستريح على
صدر أمك فرنسا .. معززا مبجلا كما يفعل الانجليز
بأبطالهم !. ولكن فرنسا كعادتها قدمته غير معزز ولا
مبجل الى أعدائه الانجليز .. فألقوا به سجينا مهانا فى
جزيرة مقفرة !. وهو مصير كنت أخشاه على نفسى ..
لقد تبين لى عند محاكمتى أن بعض التراجع منى والتلطف
فى الأقوال كان خليقا أن يبدل الحكم من الحرق الى
السجن .. ولكنى فضلت الحرق .. لأنه ليس أشق
على النفس من أن تعيش طويلا وهى ترى جحود الوطن!

ـ وطنك فرنسا اليوم غيره فى الماضى .. انه اليوم
على الأقل يفهم معنى العدالة !..

ـ العدالة !.. كدت أصدق ذلك .. لولا أن جاءنى منذ شهور وزير فرنسى يدعى « لافال » .. قال لى ان أهل وطنه الفرنسيين أعدموه ، لأنه كان عدو الانجليز اللدود .. وكانت محاكمته خزيا سوف يلصق بالقضاء الفرنسى الى قرون ... كان قضاته يعرفون قبـل أن يتخذوا مجالسهم من المنصة أنهم سيقتلونه .. وكانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم كلما هم بالدفاع عن نفسه .. لطالما جأر المتهم بالصياح فى القاعة قائلا لقضاته أو على الأصح جلاديه : « اصغوا الى دفاعى .. ثم اقتلونى اذا شئتم .. فمادمتم تريدون موتى باسم العـدل .. فليكن هنالك على الأقل عدل ! » . ولكنهم فى الحقيقة كانوا يريدون موته وكفى .. أما العدل فلا شأن لهم به .. ولقد روى لى فيما روى خبـر المارشال بيتان أحد أمجاد فرنسا الخالدين ، وابن من أبنائها المخلصين .. هذا الشيخ الوقور الذى جاوز التسعين وآثر مواجهة الكارثة مع أهل بلاده على الهرب والراحة والانزواء فى بلد أجنبى محايد بعيد عن أخطار الحروب .. كفى أن يغضب الانجليز على سياسته التى بناها على مصلحـة بلاده وحدها دون مصلحة الانجليز ، ليدفع بهذا القائد العسكرى الهرم أمام محكمة تذل كرامته وتهين سنه ،

وتشوه ماضيه ، وتمحو مجده ، وتصدر حكمها المبيت عليه فتجرده من شارات بطولته ومن رتبه العسكرية ، وتأمر أن يلقى الى آخر عمـــره الواهن الضعيف في جزيرة جرداء ، رطبة الهواء ، موحشة مقبضة ليس فيها من أصوات غير صرير الرياح وعصف الأنواء .. كلا .. لقد صدق نابليون يوم قال لى : « الفرنسيون هم الفرنسيون ! » نعم .. انهم هم دائما .. قلمـــا يتغيرون !

ـ انهم ليسوا من فصيلة « الأقوياء » !..

ـ ربما كان هذا صحيحا .. والا فبماذا تفسر تكرار هذه الحوادث على مر التاريخ :.. فرنسا وحدها هى التى تقوم فيها أمثال هذه المحاكمات والمجازر لأبنائها بوحى من أعدائها المتفوقين أو الأقوياء .. فرنسا ومن على شاكلتها فى النوع والفصيلة من أمثـــال ايطاليا .. التى أعدمت وشوهت ومثلت بابنها ومصلحها «موسولينى» .. تلك أشياء قلما تحدث فى ألمانيا أو فى انجلترا ، بل قد يدهشك كما أدهشنى أن تعلم ما قاله لى « لافال » : ان فرنسا المحتلة بالألمان ، كانت تتخاذل فى كل يوم الى حد الرغبة فى الاندماج فى الغالب .. هل تتصور أن أكثر من مائة ألف فرنسى طلبوا فى أيام الاحتـــلال

الألمانى القليلة لفرنسا أن يتجنسوا بالجنسية الألمانية ؟ !

ـ يا للعجب !.. ولقد احتل الانجليز أرض مصر ما يقرب من سبعين عاما فلم نسمع بمصرى واحد طلب التجنس بالجنسية الانجليزية !..

ـ لا يدهشنى ذلك من مصر ولا من الشرق .. أرضكم كانت مهبط الآلهة والأنبياء والقديسين ..أنتم الفصيلة الأولى « لأقوياء النفس » !

ـ ألم تؤمنى حقا وأنت على الأرض بأنك قديسة ؟

ـ قلت لك لست أدرى .. كل ما أذكر أنى كنت فتاة قروية لا أقرأ ولا أكتب .. وكنت أسمع من والدى ومن أهل القرية أن أعداءنا الانجليز يحتلون أرض فرنسا .. وبينما أنا أرعى الأغنام وأعود بها ذات مساء سمعت صوت القديسة كاترينا تأمرنى باسم الله الذى فى السماء أن أترك القرية وأذهب مع الجيش لأخلص حصن « أورليان » من أيدى الانجليز ، لأن فى خلاصه خلاص فرنسا .. وأن أتوج « الدوفين » فى مدينة « رانس » ملكا على شعبه .. فصدعت بالأمر وقمت الى العمل .. ولم أتركه حتى أتممت ما أمرتنى به السماء !..

ـ أحقيقة أنك مت عذراء ؟. كما يقول التاريخ ؟

وأنك تركت الدنيا ولم تضمى الى صدرك رجلا ؟

ـ ما كدت أبلغ سن الحب ، حتى ألقيت بجسمى فى صدر حبيب .. ضمنى ضمة أحرقتنى .. ذلك هو « وطنى » !

ـ يا له من حب قاس فظيع !.. أما كنت تفضلين ضمة شاب تلهب قلبك ولا تؤذى جسمك ! ؟

ـ الآن ربما فضلت ذلك !.. ما من عقاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها « عذراء »

ـ لعل تلك هى تضحيتك الكبرى !

ـ نعم تلك هى تضحيتى الكبرى !.. لن أغتفر لفرنسا ذلك .. كل شىء أنساه الا هذه .. بعد كل هذه القرون والأزمان ، ما زلت أردد فى وحدتى : لا يؤلمنى يا فرنسا أنى مت من أجلك حرقا .. ولكن يؤلمنى أنى مت من أجلك «عذراء» !.. وان كنت أقبل من الكنيسة لقب « القديسة » فمن أجل هذا السبب وحده !..

ـ لقد اتهموك فى المحاكمة بأنك زنديقة وأنك محتالة وكاذبة وأنك لم تسمعى أقوالا خارقة ! هل قابلت فى الآخرة القديسة كاترينا ، وتحققت من انها هى التى حادثتك بتلك الأصوات ؟..

ـ بالطبع قابلتها وسألتها .. ولكنهـــا قالت لى انها لا تذكر .. فهى تتحدث فى الســماء كثيرا ... ولا يستبعد أن يكون صوتها قد وصل الى سمعى عفوا ذات مساء ! لا شك عندى الآن أن الصوت صوتها .. أما أوامرها الحربية والسياسية فربما كان ذلك من خيالى.. لأن القديسة « كاترينا » لا تعرف شيئا عن الانجليز ولا عن « أورليان » ولا عن « الدوفين » !

ـ أو يمكن لأصوات القديسين فى الآخرة أن تصل الى آذاننا عفوا فى الأرض ؟ !

ـ ولم لا ؟ أليست أصواتا ترسل فى الفضاء فيلتقطها « القلب » المستعد لذلك .. لقد حدث هــذا لكثيرين بعدى .. وما ها هنا موضع الخطورة ، انما الخطر فى أن يعلم الناس أنك سمعت هذه الأصوات ، فهم عندئذ لن يسمحوا لك بغير واحد من أمرين : اما سلكك فى عداد المجانين، واما دفعك الى الحرق حيا .. هكذا جرى حكم الناس: من سمع صوت السماء حرمت عليه أصوات الآدميين

ـ وكيف أخاطبك أنا الآن بهذا «التليفون» وأسمع صوتك وصوت غيرك من سكان السماء ؟ !

ـ وهل يعرف الناس عنك ذلك ؟

ـ طبعا .. لأنى أنشره عليهم

ـ ألم يحرقوك حيا ؟

ـ لا ...

ـ ألم يحسبوك فى المجانين ؟

ـ ربما حدث هذا منذ زمن طويل دون أن أدرى..

مع جحا

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت جحا .. فجاء صوت ساخر يعلن :

ــ أنا جحا ... من يناديني ؟

ــ القاهرة ...

ــ القاهرة بلدي المحبوب ؟

ــ بلدك ؟ وكيف يسمونك « جحا الرومي » ؟

ــ الرومي ؟.. هي مصيبة يا سيدي من مصائب الدهر التي ابتليت بها .. كلما سرت خطوة نسبوني الى أمة .. فأنا من الأروام والأعجام والشوام ... حتى الأتراك !.. ولكن الله يشهد أني ما ولدت الا في حارات القاهرة .. بمرحها الحلو ونكاتها الرائعة .. ولكن ماذا تقول في نكد الدنيا الذي يأبى الا أن يرزأني بثقيل بعد ثقيل لا يحلو له غير التسمي باسمي .. خذ

مثلا ذلك التركى « الغشيم » المدعو نصر الدين خوجه .. لو رأيت سحنته وسمعت لهجته ولكنته لاستعذت بالله ! ومع ذلك تجده يشيع عن نفسه أو يجـــد من يشيعون عنه أنه هو « جحا » .. لقد قابلته هنـــا فى الآخرة ، وتشاجرنا وتشاتمنا وتطاول على بقـــوله انه هو معلم وفيلسوف ، أما أنا فمضحك ومهرج .. فصاح به أهل الآخرة يسكتونه بقولهم : « ليس للفلسفة فى الآخرة معنى ولا مكان، انما المكان الأول فيها للمرح»

ـ أو تمرحون كثيرا فى الآخرة ؟

ـ نحن لا نفعل غير ذلك .. والقوم هنا يحبوننى حبا جمـــا .. لأنهم يتســـلون كما كانوا يفعلون فى الدنيا بتداول النوادر يؤلفها بعضـــهم فى بعض .. ويصدرونها بالعبارة المألوفة : « يحكى عن جحا .. »

ـ عجبا !.. أو لست أنت مؤلف نوادرك فى الدنيا ؟

ـ حاشا لله يا سيدى أن أكون مؤلفا أو ملفقا .. ولو أنى ألفت من رأسى هذه النوادر لما حفل بها الناس .. انهذه النوادر تضحك الناس لأنهم هم الذين يصنعونها

ـ ما هذا التواضع منك ؟

ـ بل انى أقول الحقيقة : الدليل على أنها من صنع الناس أنها مثلهم فيها الجيد والردىء ، والظـــريف

والسخيف ، وهى كلهـا تعيش وتتداول ، بعجـرها وبجرها ونفيسها وتافهها ، من عصر الى عصر ، ومن مكان الى مكان ، ومن بيئة الى بيئة .. كأنها النـاس أنفسهم بجمعهم وخليطهم .. وانهم ليسبحون فى بحر الدهر والأجيال ، رافعين بيمناهم فوق رؤوسهم كتاب نوادرهم !..

ــ تريد أن تقنعنى بأن هذه النوادر لم تقع لك ؟

ــ يقع لى كل هذا ؟ أنا وحدى؟ أهذا ممكن الحدوث؟ لقد تزوجت فى هذه النوادر مئات المرات ومت ودفنت مئات المرات على مختلف الصـور والاشكال ، وكنت الرجل الطيب والرجل العبيط، واللص والمحتال،والكريم والبخيل ، والسمين والنحيل ، والموسر ، والفقـير ، والفظ واللطيف والعاشق والمنافق والخادع والمخدوع ، والعاقل والمجنون ، وكل ما يوجد فى الخلائق من صفات وعيوب ومناقب وذنوب ..

ــ وما وضعك اذن فى هذا الأمر ؟

ــ حائط يا سيدى .. ما أنا الا حائط قائم فى الطريق العام بين جموع الناس .. كل من جادت نفسه بحكاية رفيعة أو وضيعة ، مسحها فى وألصقها بى

ـ أو يرضيك هذا الوضع ؟

ـ وهل يستطيع الحائط أن يرضى أو يكره .. أو يمسك بتلابيب من يخط على صدره كلمة أو يعلق على سطحه ورقة ؟

ـ وما الذي جعل منك حائطا للناس دون خلق الله ؟ !

ـ اتساع صدري للنكتة الجيدة يا سيدي ! وحبي للمرح وتستري على أول كاذب جبان لينسب الى ما شاء .. وان ضحكي وقبولي للنكتة الرائقة اضطراني أن أقبل الى جانبها مئات من النكات السخيفة ، دون أن أستطيع البصق في وجوه قائليها !

ـ لو علمت كيف يستخدم اسمك لترويج النوادر ؟

ـ لا يدهشني ذلك .. فهنا في الآخرة ينسبون الى أيضا كل نادرة يراد ترويجها !.. لقد أراد زنديق أن يسخر من رضوان فسمعته يتحدث في الناس قائلا : « يحكى عن جحا أنه أراد مغافلة رضوان ودخول الجنة خلسة .. فتقدم اليه في لحظة اغفاءة وقت الظهيرة وقال له : اسمح لي يا سيد رضوان بأن ألقى نظرة من الباب على صديق لي في الجنة . فسمح له وهو على العتبة ، ثم صرفه .. فذهب جحا ثم عاد وقال له : نظرة أخرى

على صاحب قديم آخر !. فأذن له رضوان ثم صرفه .. فذهب جحا ثم عاد يطلب مثل ما طلب .. وتكرر الأمر حتى ضاق به رضوان ذرعا .. فصاح به : « لقد خيلتنى يا هذا ! كلما فتحت عينى وجدتك بالباب ، اما أن تدخل واما أن تخرج ! » . فسرعان ما قال جحا : « أدخل ! » وبادر بدخول الجنة !.. هذا يا سيدى مثل مما يروجه الخبثاء والظرفاء ها هنا ..

ـ تلك نكتة قديمة شائعة هنا فى الدنيا ..

ـ لم أسمعها وربك الا هنا فى الآخرة من زمن قريب !.. لعل مشيعها هنا رجل جاءنا أخيرا من أرضكم !..

ـ اذن أنت تسمع أيضا بأحدث نوادرك فى الأرض بعد موتك !

ـ حقا .. ولعلى الميت الوحيد الذى لم يحل الموت دون استمراره فى العمل !.. نوادر جحا تظهر فى كل عام، ورفاتى فى قبرى قد أكله الدود من مئات الأعوام! ولكن الغريب أن يأتى الى العالم الآخر قوم صعدوا حديثا يقصون على بعض هذه النوادر ، فاذا ضحكت لطرافتها وظرفها تعجبوا وقالوا لى : « لكأنك تسمعها

لأول مرة » ما من أحد يريد أن يصدق أنى لست أكثر من زبون ضمن ملايين الزبائن المعجبين بنوادر جحا ؟ !

ـ ما رأيك فى أهل السماء ؟ !

ـ رأيى أنهم يمتازون كلهم بخفة الروح !. ذلك أن أصحاب الأرواح الثقيلة لا يصـــعدون الى أعالى السماء .. فهم كلما جاهدوا ليصعدوا الينا .. جذبهم ثقل أرواحهم الى أسفل، فهم يتركون الأرض ،ولكنهم يظلون معلقين بذيل السماء !.. وهذه يا سيدى نعمة كبرى من نعم الآخرة

ـ فى الحق انها لأكبر نعمة أن يتخلص الانسان من عالم الثقلاء ويعيش بين أصحاب الأرواح الخفيفة !.. ان المرح اذن هو دستوركم !..

ـ قل انه هواؤنا وطعامنا وشرابنا !..

ـ ما أسعدكم !..

ـ نعم .. ما أسعدنا !.. ولقد زالت هنا فوارق اللغة والجنس فنحن جميعا متفاهمون لنا لغة واحدة وادراك واحد وشعور واحد : المرح !..

ـ عندما طلبتك الساعة من كان معك من الاخوان ؟

ـ كان معى شخص جاء أخيرا من الدنيا ، ما كاد

يضع قدمه فى عالمنا الآخر حتى جعل يبحث عنى ، فلما اهتدى الى عانقنى وقال انه كان يسمع بى فى الدنيا ،وانه كان يعجب بالشرق من أجلى ، وقد سألته عن اسمه فقال : « جورنج »

ـ « جورنج » الزعيم الألمانى ؟

ـ لست أدرى .. كل ما أعلم انه روى لى أنه مات منتحرا ساخرا من أعدائه ، وقد قال انهم حاكموه فى قضية أشبه بقضية « جحا والأوزة » .. فسألته عن هذه النادرة الجديدة ، فقال : عجبا كيف لا تعرفها أنت ؟.. يحكى عن جحا أنه ذهب الى الفرن بأوزة فى صينية يريد انضاجها لعشائه .. فمر بالفرن قاضى البلد وشم رائحة الشواء ، فأمر الفران أن يحمل الصينية الى منزله .. فلما حضر جحا وطلب الأوزة المشوية قال له الفران ان الأوزة طارت من الصينية .. فلم يقتنع جحا بالسبب وقاد الفران الى قاضى البلد وبدئت المحاكمة ، وتربع القاضى فى صدر الجلسة .. والتفت الى الفران يسأله عن الموضوع .. فقال الفران : « هذا الرجل المسمى جحا لا يصدق أن الاوزة طارت من الصينية !.. » فتنحنح القاضى وهز رأسه أسفا ثم تجشأ برائحة الاوزة المهضومة فى معدته وقال :

يا للكفر ! يا للزندقة ! يا للالحاد ! ألا تعــرف أيهــا الرجل أن الله قادر على كل شىء وأنه يحيى العظام وهى رميم ! حكمت المحكمة بعشرة قروش غرامة على المدعو جحا ، لانكاره مقدرة الله على الاتيان بالمعجزات ! » . .
هكذا روى لى « جورنيج » القصة وختمها باسما بقوله : لقد عقدت فى مدينة « نورمبرج » محكمة كهــذه . . كان القاضى فيها « الحلفاء » والفران « ايطاليا » وجحا « جورنيج » والأوزة « ألمانيا » . . !

ـ لن يقف الأمر عند هذا الحد . . سوف ترى فى نوادرك تجديدا فى الأعوام القادمة . . فالزمن قد تغير . . ولم يعد السوقه والعوام صالحين للسخرية والنكات . . بل الساسة ومن يصفونهم بالرجال العظــام ! غدا تسمع من يقص عليك :

« يحكى عن جحــا أنه كان ذات يوم فى مجلس الأمن . . »

ـ مهما يكن المكان الذى تذهبون بى اليه ،والموضوع الذى تحشروننى فيه والأشخاص الذين تجعلوننى بينهم فانه يبدو لى أن مغزى نوادرى القديمة قلما يتغير !. .
ـ صدقت فى هذا . . ومن أجل هذا كان خلودك فى الأرض وكانت عظمتك !. .

ـ عظمتى !.. هذه أول مرة أسمع فيها هذا الوصف يسبغ على

ـ أرجو ألا يسوءك هذا

ـ بالطبع لا يسوءنى هـــذا .. لأنه يضحكنى .. ماذا كان يحدث لو أنكم ألبستمونى رداء العظمة ولو يوما واحدا .. قبل أن أموت ؟ كنت نظرت الى نفسى فى المرآة ، وهمست مختالا : جحا العظيم !.. ثم خشيت أن أنزل بردائى الى الحارة لئلا يجرى خلفى الصـــبية والغلمان !. كلا .. رداء العظمة فوق منكبى جحا فى الدنيا شىء يضحك الناس .. وربما سمج فى نظرهم.. وبعد عن قلوبهم .. فالناس لا تحب الا من تجرد لهم عن رداء التكلف والترفع ، ولم يشعروا بعظمته حاجزا عاليا يقف بينهم وبينه !

الحمد لله انى مت قبل أن يشوه نفسى ذلك الرداء !

مع قاسم أمين

ضغطت العصا على زر الجهاز ، وطلبت قاسم أمين . .
فسمع صوت يقول :

ـ أنا قاسم أمين . . من يخاطبنى ؟

ـ هنا القاهرة

ـ القاهرة !. البلد الذى تمنيت أن أرى نساءه قد خلعن البراقع السوداء وطرحن « اليشامك » البيضاء ؟
ـ لماذا كنت تريد لهن ذلك ؟

ـ ألا يزال ذلك محتـــاجا الى ايضاح ؟ أما زلتـــم تتساءلون عن أسباب دعوتى ، وتتناقشون فى أغراض مذهبى ؟ الى متى أيها الرجال تفرضون على المـــــرأة الحرب وتجعلونها حبيسنة الجهـل قعيدة البيت ؟. دعوها حرة كى تتلقى بعض العلم فى المدرسة، واتركوها تسفر عن وجهها قليلا . . حتى يذهب عنها بعض ذلك الحيـاء

الذى تتعثر فيه .. أتوسل اليكم من عالمى الآخـــر أن تسمحوا للنساء أن يكشفن عن ..

ــ عن ماذا ؟

ــ عن وجوههن ..

ــ عن سيقانهن ؟

ــ وجوههن ... وجوههن ... ألا تسمعون صوتى جليا من الآخرة ؟ !

ــ وأنت هل تسمع صوتنا جليا من الدنيا ؟ !

ــ نعم .. أسمع .. تكلم ..

ــ لقد كشفن عن سيقانهن !

ــ وجوههن ؟

ــ أقول لك « سيقانهن » .. ألا تصدق ؟

ــ هذا مستحيل !.. أعد على الكلام .. كشفن عن ماذا ؟

ــ عملنا بنصيحتك وسمحنا لهن بالكشف عن وجوههن .. فلم يكفهن ذاك فكشفن عن نحورهن وأذرعهن .. حتى وصلن الى سيقانهن .. ولسنا ندرى ما ستكشف عنه الأيام ؟ !

ـ وهل يظهرن كذلك فى الطرقات ؟

ـ طبعا . أما فى السهرات فالكشف عن الظهور والصدور مسموح به .. وأما فى « البلاج » والبحار فالكشف عن الأكتاف والأفخاذ مباح ..

ـ ماذا أسمع ؟.. هل جننتم ؟

ـ لا بل نحن فى أتم قوانا العقلية .. ننفذ دعوتك على خير ما تتمنى .. يضع الزوج ذراعه فى ذراع زوجته نصف العارية فى ثياب السهرة ، ويذهبان الى السهرات الليلية فى الحفلات « الخيرية » أو « التكريمية » .. حيث تتلاءلأ الأجساد ، وتذوب الأكباد على نغم « الجازبند » الذى يعوى عواء الذئب الجائع فتنهض الأذرع لتلوى على الخصور ، والشفاه تنحنى لتمس النحور .. وينبغى ألا تتساءل : فى أى الأحضان وقع نصيب زوجتك أو أختك أو بنتك .. فقانون الرقص كقانون القضاء لا تمييز فيه ولا رد له .. فاذا كنت أبا أو زوجا أو أخا وأردت أن تناقش امرأة أو عذراء فى ذلك .. أو خطر لك أن تقف فى وجهها قائلا : «لا خروج الى هذا الحفل أو ذاك .. » ، فانك تسمع هذه العبارة يلقى بها فى وجهك : « متأخر !.. أين قاسم أمين يدافع لنا عن حريتنا ؟ ! »

ـ أنا ؟ !

ـ نعم أنت .. اسمك على لسانهن دائما .. لقد حققنا أملك نحن الرجال ، وأدخلنا المرأة المدارس الابتدائية والثانوية ، ولكنها أبت الا أن تدخل الجامعة ، فأدخلناها الجامعة وتخرجت فيها طبيبة ومحامية ومدرسة وأديبة وفيلسوفة الخ .. والى هنا لا بأس .. ولكن لا شيء يقف بالمرأة عند حد .. انها تريد أن تكون سياسية وأن تدخل البرلمان ، وأن تكون وزيرة ورئيسة وزارة .. لأن كلمة « البيت » فى نظرها أصبحت مرادفة لكلمة « السجن » يكفى أن تقول لامرأة : « مكانك البيت » حتى ترميك بنظرة حارقة ناسفة وتصيح : « تريد حبسى ؟ » فاذا ذكرت لها الأمومة قالت بازدراء : « تريدنى مرضعا » !.. لا ترضى بأقل من مناصب الرياسة والقيادة والسيادة .. وسيأتى اليوم الذى يظفرن فيه بما يردن ، ويتركن البيت لنا معشر الرجال لنرضع نحن الأطفال من « البزازة » بألبان النسلة والأوفالتين !. والويل لنا اذا اعترضنا .. فالعبارة المألوفة تصفع وجوهنا : « متأخرون ! أين قاسم أمين يرى وقوفكم فى طريق حريتنا ! » ..

ـ ماذا تقولون ؟.. أنا ؟..

ـ أنت الذى أشفق على المرأة من تعثرها فى الحياة
.. انها قد حطمت كل السدود التى تفصلها عن الرجل
.. لا يوجد اليوم حمام للسيدات على شواطىء البحار
.. لأنه لا يصح أن يكون هناك فرق بين النساء والرجال
.. فمن أراد اقامة فاصل بين الجنسين تعرض لنقمتهن
واعتبرنه خادشا لكرامتهن .. انهن والرجال سواء ..
اذا سبح رجل فى بحر وجب أن يسبحن معه ، واذا
دخل ملهى لا بد أن يدخلن معه .. واذا دخن كان لهن
أن يدخن ، واذا احتسى الخمر كانت الخمر لهن حلالا
.. واذا لعب الورق كان القمار بغيرهن سخافة ، والمائدة
الخضراء بغيرهن عتمة وسواد .. ما من رذيلة يأتيها
الرجل الا كانت اليوم للمرأة حقا من حقوقها المكتسبة!
فاذا قلت للنساء : مهلا .. مهلا .. هذا لا يصح لامرأة
أن تأتيه !.. صحن فى وجهك : « كيف يصح ذلك
للرجل ولا يصح للمرأة ؟.. فيم التفرقة أيها الرجال ؟
.. ولكنه استبدادكم دائما واستعبادكم لنا .. أين قاسم
أمين ينتزع لنا منكم حقنا ويذود عن حريتنا ؟ ! .. »

ـ أنا ؟ أنا ؟.. لا حول ولا قوة الا بالله !

ـ أنت ولا شك كنت تبيح للفتاة أن ترى خطيبها مرة
فى حضرة أهلها قبل أن يعقد القران .. فلتقر عينك

اليوم .. فان هذه الاباحة قد تعدت الرؤية النظرية الى ما تسميه الفتاة الآن حقها فى امتحـــان الخطيب ، فهى لا تكتفى بمرآه .. بل لا بد لها من وقت طويل تنفرد به خلاله وتخرج معه الى النزهة والسينما والحفـــلات والسهرات .. ليتم لها فحصه الفحص الدقيق فى مختلف مناحيه وجوانبه ونزواته ونوازعه .. فاذا بدا لها يوما أنه كان ثقيل الظل فى اختياره رواية سينمائية بطلتهـا « ريتا هيوارث » التى تمقتها .. فانها تخرج خاتم الخطبة من أصبعها وتلقى به فى وجهه .. وتفسخ ما بينهما لأن أذواقهما غير متفقة .. وتمد اصبعها لخاطب آخر يضع فيها خاتما جديدا وتمثل معه قصة الخطبة ردحا من الزمن .. وهلم جرا .. فاذا كنت أبا أو أخا وأردت أن تقول لهذه الفتاة : هذا ليس مشروع تأسيس أسرة ، ولكنه لعب ومغازلة مع الشبان فى صورة علنية مشروعة، أجابتك الفتاة فى الحال : « فى أى عصر نعيش ؟.. أنحن فى القرون الوسطى ؟.. أنحن فى عهد الجوارى والحريم؟ الدنيا حرية .. رحم الله قاسم أمين !.. »

– كفى .. كفى .. فى أى عصر تعيشون أنتم ؟. لا شك أنكم جننتم !. ان ما أسمع عجيب !..

– أليس هذا ما كنت تتمناه للمرأة الجديدة ؟

ـ أنا ؟ أيمكن أن يتصور عقلى ذلك الذى تحكى عنه ؟.. أحدث كل هـــذا عندكم فى هذه الفتــــرة الوجيزة ؟.. كيف أمكن أن تصبح المرأة لديكم عـلى هذه الصورة فى هذا الزمن القليل .. ان لى رغبة فى أن أبصق فى وجوه ..

ـ النساء ؟..

ـ بل الرجال .. أنتم معشر الرجال القــوامين على هؤلاء النساء .. كيف أرخيتم لهن الحبل حتى انطلقن الى هذا الحد المخيف ، الذى لم يخطر لى على بال ؟.

ـ ماذا نصنع ؟. كلما هممنا بجذب الحبل واظهـــار الشدة .. صرخن فى وجوهنا : « رحم الله قاسم أمين! أين قاسم أمين يمنحنا حريتنا ؟. لو كان قاسم أمين حيا لآزرنا وعضدنا ! »

ـ أنا أعضدهن على ذلك ؟ ! الحمد لله انى لم أكن حيا

ـ ماذا كان يحدث لو أنك حى ؟ !

ـ كان يحدث أن يضربننى بنعالهن !..

ـ واذا رأيت نعالهن اليوم أيضا لهالك الأمر وبلغ منك العجب ! فبعضها له كعب دقيق عال كحافر المعزة .. وبعضها له نعل ســـميك كأنه دبابة .. والبعض

يكشف عن مؤخر القدم ، والبعض يكشف عن مقدمها .. لأن جوارب « النايلون » يجب أن تظهر للعيـــان ويجب أن تعطى الفرصة لتتمزق ويدفع فى أمثالها باهظ الأثمان

ـ أو لم يزل اسمى مقرونا بهذه المساخر ؟ !

ـ بالطبع .. اذا قالوا : « المـــرأة الجديدة » قالوا : « قاسم أمين » !

ـ وما العمل ؟ أما من طريقة لاظهار تنصلى ...

ـ تنصلك من ماذا ؟ من هذه الحركة النســـوية ؟ مستحيل !

ـ أرجو منك !.. أنت رجل طيب فيما يلوح لى وقد تفضلت فخاطبتنى وبينت لى ونبهتنى ..

ـ لا يا سيدى .. لا تأمل فى ذلك .. تنصلك الآن من أصعب الأمور ..

ـ افعل ذلك من أجلى ... من أجل الحقيقة والتاريخ .. من أجل رجل مسكين .. استغلوا اسمه فى كل موضع ..

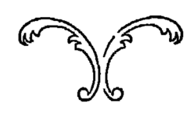
ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ أعلن الى الناس عن لسانى أنه لا علاقة لى بهـذه الحركة . .

ـ وهل تظن أحدا يصدقنى ؟ .. لو تكلمت باسـمك وقلت: انى خاطبتك وتلقيت عنك هذا الاعلان، لأدخلونى توا مستشفى المجاذيب

ـ وما الذى تراه لى اذن ؟

ـ سلم أمرك الى الله ! .. فلست أنت أول ولا آخر رجل يلصق اسمه على أشياء هو منها براء .. اعتبـر نفسك طابع بريد .. أيمكن أن يسأل ذلك الطابع عما يلتصق به من رسائل ، قد يكون فيها ما ينذر بالكوارث والدواهى ؟ !



الآخرة لأهلها

أرادت العصا أن تمضى فى الضغط على الزر، وتطلب من تختار . . ولكنها ترددت قليلا . . والتفتت الى وقالت:

ـ أظن من سلامة الذوق وحسن الأدب أن أترك لك حرية الاختيار تبعا لمشيئتك أنت ، ولو لحظــة . . ما قولك فى أن تضغط أنت على الزر وتطلب من تشاء ؟ ربما كان لك فى الاختيار مأرب تحب أن تحققــه أو مقصد ترى أن تسعى اليه . .

قلت :

ـ حقا أريد أن أعرف أمورا تهمنى معرفتها من بعض سكان العالم الآخر . . أتأذنين لى فى الدنو من الجهــاز لأطلب من أريد ؟ . .

قالت العصا :

ـ تفضل ! . .

فاقتربت فى الحال من الجهاز ، وضغطت على الزر ، وطلبت « طاغور » .. وانتظرت لحظة مضطرب الأنفاس مرتعش اليد .. واذا صوت يبدو لأذنى جليا عميقا :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ طاغور ؟ الشاعر الهندى والقطب الروحانى ؟ لقد فارقت دنيانا منذ أعوام قليلة .. أخبرنى ماذا تصنع عندك الآن فى مقامك الأزلى ؟

ـ أو تريد هكذا بلا ثمن أن أخبرك بأشياء كلفنى العلم بها أن أموت ..؟

ـ كنت فى حياتك تجهد لتعلم غيرك ، فما يضيرك فى مماتك أن تعلم الناس أيضا ؟..

ـ لكل دار علومها ودروسها ، هل كنت وأنا على الأرض أعلم الأموات ؟ .. كيف تريدون منى الآن بعد الموت أن أعلم الأحياء ؟ علوم الدار الأرضية لا يفهمها غير أهلها .. وعلوم الدار الآخرة لا يدركها غير أهلها .. مت أولا فتفهم عنى بعد ذلك الجواب عن سؤالك !

وانصرفت روح طاغور عن الجهاز ، شأن من يضع السماعة وقد انتهى الحديث .. وتركتنى كما كنت

قبل .. لم أفز بطائل .. وجعلت أقلب الأمر في نفسي، ثم قلت للعصا : مالي ولشئون الأرواح .. وما يجرى في العالم الآخر ؟. فلأقصر همى على عالمنا الحاضر .. وأفكر في مستقبل حياتي المادية .. انى رجل لا أنجح في أي عمل مالي .. وكلما وضعت مدخرى القليل في تجارة كسدت باذن الله أو بفضل خيبتي الباهرة .. لماذا لا أستعين بخبرة محنك في أمور المال مثل المليونير الأمريكي « فورد » ملك السيارات ؟ فلنطلب روحه ونسألها العون والمشورة .. وضغطت على الزر مرة أخرى وطلبت روح « هنرى فورد » فحضر قائلا :

ـ من ينادينى ؟

ـ أنا .. شخص لم تعرفه قط .. يلتمس توجيهك ليصبح ثريا ...

ـ افتح مصنعا للسيارات ..

ـ هذا مستحيل .. انى لا أفهم في هذه المسألة شيئا ..

ـ وأنا لا أفهم خارج هذه المسألة شيئا ...

ـ انى لا أعرف كيف أقود سيارة ، بل دراجة .. وكل ما عندى من رأس مال بضع مئات من الجنيهات ، وأريد أن أصبح بها مليونيرا بفضل نصحك وارشادك ،

والا فما فائدة أرواح العظماء أمثالك ؟..

ـ لو كانت روحى .. أنا وأمثالى تستطيع أن تجعل من كل مشترك فى هذا الجهاز التليفونى صاحب ملايين لما أصبحت للثروة قيمة فى أرضكم ..

وانقطع الصوت .. ومضت روح « فورد » لشأنها.. وتركتنى حائرا يائسا .. وقد ضاع أملى فى الثـــراء السريع .. وطفقت أفكر مليا فى استغلال هذا الجهــاز الذى لم أجن منه بعد أى ثمرة .. وخطر لى خاطر فقلت للعصــا : « مالى وللعلم والمال .. هنالك الفن .. انى لم أعالج قرض الشــعر .. فلو طلبت روح المتنبى وسألته أن ينظم لى قصائد من روائع عبقــريته وأذعتها فى الناس .. ألا يكون هذا عملا جليلا ؟ ! » . فقالت العصا : « جرب ! » فبادرت أضغط على الزر وأطلب روح الشاعر العربى القديم .. فحضر يقول بصــوت فخم ضخم :

ـ أنا المتنبى !..

ـ أهلا وسهلا .. أنا أحد المعجبــين بك ، ألتمس منك قصيدة تصور فيها الحرب الأخيرة كما كنت تصور الحرب فى زمانك !

فانطلق صوت المتنبى ينشد :

وتضحى الحصون المشمخرات فى الذرى
وخيـــلك فى أعنـــاقهن قـــلائد

عصـــفن بهم يوم اللقـــان وســـقنهم
بهنـــريط حتى ابيض بالســـبى آمد

وألحقـــن بالصفصاف سابور فانهـــوى
وذاق الردى أهلاهمـــا والجـــلامد

فقاطعته برفق قائلا له :

ـ هذا وصفك للحرب منذ ألف عام ونيف .. ولكن الحرب الأخيرة شىء آخر .. ان الطائرات والدبابات وقاذفات اللهب وقذائف الصواريخ ، وقنابل الذرة ، تفعل أفاعيل وتحدث أعاجيب لو اطلعت عليها ...

ـ قنابل الذرة ؟ ما هذا ؟.

ـ شىء يطول شرحه .. انها بالاختصار آلة تلقى من طائرة

ـ طائرة ؟ وما الطائرة ؟: .

ـ مركبة هوائية تحلق فى الجو وبداخلها انسان

ـ عجبا !. عجبا !.

ـ أنت اذن لا تعرف شيئا غير الذى كان فى عصرك!
ولن تستطيع أن تصف الا ما شاهدت فى حياتك على الأرض

ـ وكيف أعرف ما لم أره ؟

ـ شكرا لك اذن !..

ووضعت سماعة ذلك التليفون وأنا ضيق الصدر مكروب النفس أنظر شزرا الى ذلك الجهاز ..

واذا العصا تقول :

ـ مالك وهذه المطالب المعقدة ؟. لك صديق مريض بالتهاب الرئة .. حبذا لو استشرت فى أمره طبيبا مشهورا مات منذ سنوات .. فلماذا لا تطلب ذلك الطبيب؟

فضغطت على الزر وطلبت روح ذلك الطبيب فحضر، فقلنا له :

ـ الموضوع يتعلق بحالة التهاب رئوى

ـ ضعوا على صدر المريض لبخة بذركتان ..

ـ ولكنه يعالج الآن فى المستشفى بحقن «البنسلين»؟

ـ « البنسلين » ؟.. ما هذا ؟

ـ علاج جديد ظهر فى زمن الحرب الأخيرة وعولج

به « تشرشل » أكثر من مرة فى حالات خطيرة لهـــذا المرض !..

ـ شيء غريب ؟ ! اشرحه لى ..

ـ أنا لست طبيبا ... وعلى كل حال فنحن لم نطلب حضرتك لنعلمك الطب .. أو نشرح لك أحـــدث مخترعاته ...

وهنا أبعدت السماعة .. فقد قالت العصا :

ـ يظهر أن هذه الأرواح أجهل منا بكثير !..

فقلت :

ـ هذا طبيعى .. وكيف تريدين منهـــا أن تلم بتطورات حياتنا وقد انصرفت عنا الى حياة أخرى ؟. ان أقصى علمها هو ما وقع فى حدود تجاريبها الخاصة على هذه الأرض .. أما بعد ذلك فلها حياتها الجديدة التى نجهلها نحن كل الجهل .. ولا تستطيع هى أن تخبرنا بها .. لأنها لا تملك التعبير عنها بأدوات الآدميين ولا باحساساتهم .. ولا تقدر على نقلها الى مداركنا بوسائل البشر ومشاعرهم .. فهم عالم جديد غير عالمنا ، لايعرف فيه السرور ولا الحزن ، ولا الفـــرح ولا الترح ، ولا السعادة ولا الشقاء ، ولا اللذة ولا الألم ، على النحو

الذى نعرفه فى هذه الأرض .. لئن كانت الحيـــاة الانسانية تتغير مقاييسها وموازينها وتنقلب رأسا على عقب على سطح القمر القريب منا ، أفلا تريدينها متغيرة التغيير كله فى العالم الآخر ؟ !

وأرسلت العصا نظرة الى الجهاز التليفونى وقالت :

ـ وما فائدة هذا الجهاز اذن ؟ !

فقلت لها بعد تفكر :

ـ لست أدرى .. ربما كان نافعا للتسلية كجهـــاز لراديو .. فقد يسر لنا أن نشــــغل فراغنا بطلب روح شخص من أقربائنا ... أو من أبطال التـــاريخ لنثرثر معه قليلا فى أشياء لا طائل تحتها ، وما دمنـــا لا نسأله شططا ولا نطلب اليه مستحيلا ولا نلتمس عنده علمـــا أكثر من علمه ، فاننا لن نصاب بخيبة أمل !.. ودعينى أثبت لك ذلك الساعة .. سأطلب روح « نابليـــون » وأرجو منه أن يروى لى حياته الماضية .. وهذا بالطبع أمر لا يمكن أن يجهله ..

وضغطت على الزر فى الحال وطلبت روح الامبراطور فحضر وسألته بأدب يليق بجلالته عن حيـــاته الغابرة ، فقال :

ـ أو تحسبني أتذكر تفصيلات كثيرة عن هـــذه الحياة الآن ؟

ـ أحقا لا تستطيع جلالتك أن تتذكر ذلك ؟..

ـ وهل تستطيع أنت أن تتذكر أشياء كثيرة واضحة في حياة طفولتك الأولى ؟..

ـ صحيح.. لكأن ستارا من الضباب يقف بيني وبين أغلب تفاصيلها ..

ـ حياتي في الأرض كذلك .. هي حياة طفـــولة بعيدة .. بعيدة

ـ لقد كتب المؤرخون عنك مجلدات ضـــخمة تصف دقائق حياتك ..

ـ أنصح لك اذن أن تكتفي بها .. منها على كل حال تعرف عني أكثر مما أعرف أنا الآن !..

وهنا أومأت الى العصا باشارة من يدها تنـــــم عن الضيق ، أن أطرح السماعة فوضعتها .. فصاحت بي متهكمة :

ـ أرأيت ؟.. حتى ولا الثرثرة معهم كثيرة النفع !

وهنا قمت الى الجهاز فحملته وألقيت به في خـــزانة للأمتعة القديمة .. وعدت الى مكاني .. فقالت العصا :

ـ حسنا فعلت !.. فلندع الموتى فى دنياهم، والأرواح فى عالمهم .. فالويل لهم اذا كنا سننتزعهم من صفائهم العلوى لنقحمهم فى مشاغلنا ومسائلنا ونشركهم فى جدنا وهزلنا ، ونحملهم همنا وتبعاتنا .. والويل لنا اذا كنا سنعتمد عليهم ونستنيم اليهم ! لعنة الله على هذا الاختراع الذى يريد أن يحدث ثغرة فى ذلك السد الذى لا يكسر ، والسور الذى لا يقهر : الموت !.. فيخلط بين بحرين مختلفين فى جوهر الماء ومعدن الأحياء .. ويشيع الفوضى بين عالمين ، خلقا منفصلين ! ويجعل أحدهما مسلاة ، والآخر ملهاة !.. وماذا يبقى لنا بعد ذلك من مصير كنا نحسبه أجل من هذا وأقدس .. ومن حياة أخرى كنا نظنها أرفع من أن تهبط الى الاهتمام بسخفنا الفانى وعبثنا الزائل ؟.. ألا أيها العلماء .. اخترعوا فى شئون الذرة والقوى الحيوية ما شئتم من اختراع .. ولكن ، بربكم .. اتركوا لنا على الأقل حلمنا الأزلى الجميل وصورتنا المثالية الرائعة عن « الآخرة » !..

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الجزء الثانى : فى الآخرة

الكتاب القادم

أبو نواس

قصة حياته فى جده .. ولهوه

بقلم عبد الرحمن صدقى

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دارالهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما (ماعدا كتاب زينب ١٠٠ مليم) بخلاف مصاريف البريد المسجل، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد
تأليف عباس محمود العقاد

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد ابو حديد

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

هرون الرشيد
تأليف الدكتور احمد امين

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

ابو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

الزعيم أحمد عرابى
تأليف عبد الرحمن الرافعى

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

بطلة كربلاء (نفدت نسخه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

قلب النسر
تأليف أوكتاف اوبرى

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تاليف صوفى عبد الله

حديث رمضان
تاليف الامام محمد مصطفى المراغى

عبقرية خالد
تاليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تاليف الكابتن هـ. س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تاليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تاليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تاليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تاليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تاليف عباس محمود العقاد

زينب
تاليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تاليف الزعيم احمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تاليف الزعيم احمد عرابى

عبقرية عمر
تاليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تاليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تاليف عباس محمود العقاد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد عنى نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ـ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

اعتاد الأدباء منذ القدم أن يجروا على ألسنة الحيوان والجماد خواطرهم الأدبية ، وأفكارهم الفلسفية ، ونظراتهم الاجتماعية ، لما فى هذا الاسلوب من تشويق للقارىء ، واثارة لاستطلاعه ، بطريقة شائقة ممتعة

وقد سبق للاستاذ توفيق الحكيم أن أجرى خواطره على لسان حماره ، ولكن حماره لم يكن وفيا فى صحبته ، فقد هجره ، وجرى الى ميدان السياسة وانغمر فى السياسيين .
فاستعاض عنه بعصاه ، لأنه وجدها أوفى منه ، واكثر قناعة بحياتها الهادئة المتواضعة ، فجعل يحادثها وتحادثه ، ويفضى اليها بما يجيش فى صدره من شئون الناس والفكر والمجتمع

وهى فى هذا الحديث ليست كعصا موسى تأكل الحيات والحبال ، بل هى فى سحرها تنفث الحكمة والعبرة والجمال . . وليست مثل عصى الجاحظ ، تستخدم للاشارة فى الخطابة ، أو يقرع بها لعامر بن الظرب حين يصاب بالنسيان ، بل هى عصا الحكيم ، تتحدث فى قول كريم ، واسلوب سلس سليم